سياق الموقف بين الإيجاد العِلّي للنص القرآني والطرح التأويلي في الفكر الحداثي

دراسة نقدية اصطلاحية

أ.د. المثنى عبد الفتاح محمود محمود

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في قسم التفسير وعلوم القرآن

في كلية القرآن الكريم في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، محمد بن عبد الله وعلى آله ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ووالاه وبعد؛ فإن الدرس الحداثي المعاصر، بلغ مبلغاً من التأثير والانخراط في الدراسات الأدبية واللغوية والنحوية ما لم تبلغه المدارس المتقدمة، وأصبحت الدراسات الحداثية سكةَ الحرث في النص اللغوي التراثي، ولم يقف الأمر على هذا المنوال، بل وصل بعضها القرآن الكريم؛ ليكون النص القرآني حقلاً من حقول الاستنباط بأدوات حداثية وعقول عربية على ضوء اتجاهات ونظريات ومدارس لم تستقر بعد في موطن النشأة، وما ذاك إلا بسبب ظنٍّ مُتوَهم، أو عجزٍ ظاهر، أو تقليدٍ جامد، أو تحريف مقصود، أو إلحاد متعمد.

والباحث الحصيف لا يكون مع القبول التام للطرح الحداثي، أو الرفض التام، بل لا بد من تمحيص ما قيل في الحقول المعرفية المعاصرة، لاسيما عند الغربيين، فإن كثيراً مما قالوه صحيح في ذاته، ومفيد في دراساتنا، نعم قد يكون هناك طرح يختلف في غرضه ووجهته في التعامل مع اللغة العربية عموماً، ومع لغة القرآن خصوصاً، فهذا بلا شك يحسُنُ رفضُه، أو تقييده وضبطه بما يتناسب مع طبيعة الدراسة اللغوية التي تتمتع بها الدراسات القرآنية، وهذا مقتضى العدل والإنصاف والحكمة.

وهذا البحث يعالج مسألة من مسائل الحداثة، وهي مصطلح سياق الموقف، وموقعه من النص القرآني بين القبول والرفض، وأثر ذلك في التأويل والتفسير، بل في إثارة الشبهات والطعون حول القرآن الكريم، من حيث مصدريته، وقابليته للتجديد، ومدى خضوعه لتاريخ النزول، وعلاقة ذلك بالطرح التاريخاني، وما يجره هذا الطرح من تغييرات جذرية في آليات التأويل وأدوات التفسير على مدى الزمان؛ لأن التاريخانية عنوانها الرئيس التغير والتطور وعدم الثبات، فالإنسان متغير، وتاريخه متغير، وطرائق التفكير متغيرة، وعليه فلا يوجد ثوابت؛ لأن الثوابت تعني عندهم مخالفة الطبيعة التي يحياها الإنسان، ومن هذا الطرح نشأت فكرة السياق، بفرعيه المقالي والمقامي، فالمدرسة السياقية ترى أن الكلام هو نتاج الواقع الذي يعيشه الإنسان، وسياق الموقف والسياق الاجتماعي هما أحد أركان صناعة الكلام، والسياقيون الحداثيون لا يفرقون بين نص بشري ونص إلهي، فالأمر عندهم سيَّان، ومن هنا جاءت معضلة القول بسياق الموقف، الذي سيناقشه هذا البحث تفصيلاً وتأصيلاً، للخروج بنتائج واضحة حول هذا المصطلح، ومدى قبوله أو رفضه في الدراسات القرآنية.

ولذلك آثرت أن أعنون لهذا البحث بـ: "سياق الموقف بين الإيجاد العِلّي للنص القرآني والطرح التأويلي في الفكر الحداثي"، وقصدت به بيان سياق الموقف بالنسبة للنص القرآني في الطرح الحداثي، هل

سياق الموقف هو العلة الموجدة للنص القرآني، وأنه معين على التأويل والفهم والتفسير؟ فعلى ذلك قام هذا البحث، وهو يُعالج هذه المسألة.

واللهَ أسأل أن يسدد القول، ويعين على بلوغ الصواب، وإدراك الحق في الأمر كله، وأن يُجنِّبنا الفتن ما ظهر وما بطن، وأن يقينا بدع الأفكار، ويعصمنا من مُضِلات النُّظَّار، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أهمية البحث: تظهر أهمية البحث في كونه يناقش أحد المصطلحات المنتشرة في الأوساط العلمية، دون تمحيص أو غربلة لمفهومه ومقاصده وما يجره من معانٍ غريبة عن الساحة التخصصية، في مضامينها العلمية والفكرية والثقافية، وهو يرسم منهجاً في كيفية التعامل مع المصطلحات الوافدة على العلم التخصصي.

أهداف البحث: يسعى البحث إلى تحقيق مجموعة من الأهداف تتمثل في الآتي:

١- بيان مفهوم سياق الموقف في الفكر الحداثي.
٢- التفريق بين سياق الموقف وأسباب النزول في علوم القرآن.
٣- التفريق بين سياق الموقف ومقتضى الحال في علم المعاني.
٤- بيان الموقف العلمي من سياق الموقف وجواز استعماله في الدراسات القرآنية.
٥- تعليل الموقف العلمي بالأدلة والأسباب التي توصل إليها الباحث.

المشكلة البحثية: يدور البحث حول السؤال الرئيس الآتي: هل يصح استعمال مصطلح سياق الموقف على ضوء مفهومه الحداثي في الدراسات القرآنية؟ ويتفرع عليه: هل وُجد مضمون سياق الموقف في تراثنا العلمي؟ هل يشكل سياق الموقف انحرافاً في التعامل مع القرآن الكريم؟ هل يمثل استعمال سياق الموقف تجديداً في الدراسات القرآنية؟ ما أسباب قبول هذا المصطلح أو رفضه؟

منهج البحث: يقوم البحث على المنهج النقدي، وذلك باستعراض مفهوم السياق القرآني وسياق الموقف في الفكر الحداثي، ومناقشة مدى قبول هذا المصطلح بأبعاده الثقافية والفكرية في الدراسات القرآنية، مع الاستدلال على ذلك بالحجج والبراهين العلمية، فالبحث يندرج تحت الدراسة النقدية المصطلحية.

خطة البحث: تتشكل خطة البحث من الهيكلية الآتية:

المقدمة: وفيها أهمية البحث، وأهدافه، والمشكلة البحثية، ومنهج البحث، وخطته.

المبحث الأول: مفهوم السياق وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم السياق القرآني لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: مفهوم سياق الموقف في الفكر الحداثي.

المبحث الثاني: الفرق بين سياق الموقف وأسباب النزول ومقتضى الحال وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الفرق بين سياق الموقف وأسباب النزول.

المطلب الثاني: الفرق بين سياق الموقف ومقتضى الحال.

المبحث الثالث: أسباب منع استعمال سياق الموقف في الدراسات القرآنية.

ثم **الخاتمة**: وفيها أهم النتائج التي توصل إليها الباحث.

المبحث الأول: مفهوم السياق

سأتناول في هذا المبحث مفهوم السياق القرآني لغة واصطلاحاً، ثم مفهوم سياق الموقف، لتحديد المفهوم الدقيق لكلٍّ منهما، بحيث تتضح حدود المفاهيم، والمعاني الحقيقية لكل مصطلح، فهو الأصل الذي سيُبنى عليه هذا البحث.

المطلب الأول: مفهوم السياق القرآني لغة واصطلاحاً:

أولاً: مفهوم السياق لغة: النظر في الجذر اللغوي الثلاثي "سوق" في استعمالات العرب، فيما نقله اللغويون عنهم، يعين على الوقوف بدقة على مفهوم هذا المصطلح في اللسان العربي، جاء في العين: "سقته سوقاً ورأيته يسوق سياقاً، أي: ينزع نزعاً يعني: الموت، والساق لكل شجر وإنسان وطائر، وامرأة سوقاء، أي: تارَّة الساقين ذات شعر، والأسوق: الطويل عظم الساق، والمصدر .. والسوق معروفة، والسوق موضع البياعات، وسوق الحرب: حومة القتال، والأساقة: سير الركاب للسروج، والسوقة: أوساط الناس والجميع السوق"(١)، وقال أبو عمرو الشيباني: "الترشيح: سوق البهم، إنما هو أن يضرب أذنابها حتى تنساق"(٢).

وأما ابن فارس فرجعه إلى أصله بقوله: "السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حَدْوُ الشَّيء، يقال: ساقه يسوقه سَوقاً، والسَّيِّقة: ما استيق من الدوابّ، ويقال: سقتُ إلى امرأتي صَدَاقها، وأَسَقْتُهُ، والسُّوق مشتقّةٌ من هذا، لما يُساق إليها من كلِّ شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سُوق، إنّما سمّيت بذلك لأنَّ الماشي ينْساق عليها، ويقال: امرأة سَوْقاء، ورجلٌ أَسوَق، إذا كان عظيمَ السّاق، والمصدر السوق"(٣).

ويقول ابن سيده: "وساق إليها الصداق والمهر سياقاً، وأساقه، وإن كان دراهم أو دنانير؛ لأن أصل الصداق عند العرب الإبل، وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما"(٤).

وقد سمت العرب سوق المربد بهذا الاسم؛ لأن المربد هو محبس الإبل، من قولهم: ربد الإبل أي: حبسها، ولما كانت الإبل تُحبس في موضع معين، فإنها تُساق لذلك الموضع، فسموه المربد، وهم يريدون سَوْق الإبل لحبسها، ثم اتسع هذا الأمر فأُطلق على كل موضع تساق إليه السلع والبضائع، جاء في غريب

---

(١) العين، للفراهيدي، ج٥ص١٩١.
(٢) الجيم، لأبي عمرو الشيباني، ج٢ص٣٧.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٣ص١١٧.
(٤) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ج٦ص٥٢٤.

أبي عبيد: "قال الأصمعي: المربد كل شيء حُبست به الإبل، ولهذا قيل: مربد النعم الذي بالمدينة، وبه سمي مربد البصرة إنما كان موضع سوق الإبل"(٥).

وقال ابن دريد: "السَّوْق: مصدر سُقتُ البعيرَ وغيره أسوقه سَوقاً، والسَّوَق: غِلَظ الساقين؛ رجل أسْوَقُ وامرأة سَوْقاءُ، والسُّوق: معروفة، تؤنّث وتُذكّر، وأصل اشتقاقها من سَوْق الناس إليها بضائعهم"(٦).

فدارت النصوص اللغوية حول معنى متقارب، وهو تتابع المسير لبلوغ غاية محددة، والذي يظهر أن مدار الأمر قائم على الساق التي هي أحد أجزاء الإنسان، وأنه بالسير عليها كانت هي السائقة لمراده في الوصول إلى مبتغاه، فهذا من باب الاشتقاق، اشتقوا من الساق التي هي آلة موصلة لصاحبها اسماً أو فعلاً مرتبطاً بمعناها، كما قال الجرجاني في تعريف الاشتقاق: "نزع لفظ من آخر بشرط تناسبهما معنىً وتركيباً، وتغايرهما في الصيغة بحرف أو بحركة، وأن يزيدَ المشتقُّ على المشتقّ منه بشيء"(٧).

ولما كانت السوق غاية الناس وينساقون إليها بسيقانهم سُميت بهذا الاسم، ثم أصبح السياق يُطلق على كل تتابع منتظم للوصول إلى غاية محددة، "فالسياق في الحس اللغوي وفي دلالته اللغوية – بمجموع المعاني التي تدل عليها تقليبات هذه الكلمة –، يدل على انتظام متوالٍ في الحركة لبلوغ غاية محددة.

فالتتابع فيما بين الأشياء هو التساوق، ولا يكون متتابعاً إلا إذا كان له غاية لا بد من وصولها، فمنه سَوْق المبيعات نحو السوق، إذ ما سيقت إلا لغاية بيعها، وما سيق الصداق إلا لغاية إيصاله للمرأة، فما قاله ابن فارس بأن هذا الأصل يدل على "حدو الشيء"(٨)، أي: تتابعه بالسير يوقفنا على المعنى الدقيق لمفهوم السياق، فالسياق في اللغة يدل على تتابع منتظم في الحركة توصلاً إلى غاية محددة، دون أن يكون هناك انقطاع أو انفصال، هذا ما تُفهمه مجموع النصوص اللغوية الواردة على هذا الجذر"(٩).

ثانياً: مفهوم السياق اصطلاحاً: ذكر المفسرون كلمة السياق ومشتقاتها في تفاسيرهم، دون أن يُقدِّموا مفهوماً منضبطاً حول هذا المصطلح في الجانب التنظيري، وهذا يعني وضوح المفهوم في أذهانهم رحمهم الله، بحيث استغنوا عن بيانه، ومما يدل على وضوح مفهوم السياق تلك الإشارات المبكرة من كبار المفسرين، فمن ذلك ما روي عن مسلم بن يسار (١٠٦هـ) رحمه الله تعالى أنه قال: "إذا حدثت عن الله فأمسك؛

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد، ج١ص٢٤٧.
(٦) جمهرة اللغة لابن دريد، ج١ص٤٧٦.
(٧) المفتاح في الصرف، الجرجاني، ص٦٢.
(٨) مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٣ص١١٧.
(٩) نظرية السياق القرآني، المثنى عبد الفتاح، ص١٤.

فاعلم ما قبله وما بعده"[١٠]، والذي يُفهم من هذه الكلمة أن السياق وأثره في التدبر والفهم واضح في أذهان القوم، وهم ينظرون إليه من خلال السابق واللاحق، وهو ما أغرى كثيراً من الباحثين إلى تعريف السياق بالسابق واللاحق اتكاءً على ما وجدوه من تلك الكلمات عن السلف.

ونحن في عصر نحتاج فيه إلى التأصيل العلمي، مع لِحاظ التفصيلات الدقيقة التي من شأنها أن تزيل الغشاوة عن منهجيات الفهم وآليات التأويل، لاسيما في هذا الزمن الذي كثرت فيه القراءات الحداثية الحائمة حول حرف الأفهام عن المقصود والمراد، وبالتالي كان التأصيل العلمي واجباً على العلماء المختصين في هذا الشأن، فإنَّ البقاء في عموميات الطرح العلمي، المتسم بالإجمال صنعة غير مرضية، ومسلك ضعيف، ينحدر بأصحابه عن بلوغ رتب العلم؛ لذا كان لزاماً التفصيل والتدقيق في هذا الباب[١١].

ومفهوم السياق القرآني هو: "**تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية؛ لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال**"، والمقصود من "تتابع المعاني": ترابط المعاني الفرعية لخدمة المعنى الأصيل الوارد ذكره في السورة أو المقطع، و"انتظامها": أي أن هذه المعاني تسير سيراً منتظماً مقصوداً من قبل المتكلم، غير مشتتة ولا مبعثرة، و"في سلك الألفاظ القرآنية": باعتبار أن اللفظ القرآني هو الحامل للمعاني وبه تظهر صورة النظم، و"لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود": الغاية الأصيلة للسياق القرآني هي إعطاء معنى تام كامل يؤدي الغرض الذي لأجله أنزل القرآن، فكان لا بد لهذه المعاني المتتابعة من إبرازه وتوضيحه، "ودون انقطاع": أي: من غير انقطاع المعاني التي تتحدث عنها الآيات، فلا يصح أن تقف الآيات رأساً دون أن تكتمل المعاني وتتجسد للرائي، و"دون انفصال": أي: دون أن يكون هناك فاصل أجنبي، من غير أن يكون له داعٍ، أو ارتباطٌ بموضوع الآيات"[١٢].

وعليه فالمقصود من السياق هو تتابع المعاني في ألفاظها؛ لتبلغ غاية المتكلم بطريقة مخصوصة، وهذا التعريف للسياق بهذا البيان هو الأقرب للانضباط العلمي التخصصي، وهو الأسلم في إعطاء معيارٍ دقيقٍ في تناول هذا المصطلح في ميدان التفسير والتأويل.

المطلب الثاني: مفهوم سياق الموقف وأنواع السياق في الفكر الحداثي:

أولاً: مفهوم سياق الموقف: يمثل سياق الموقف في الفكر الحداثي أحد مكونات الكلام، فالنص عبارة عن ألفاظٍ تصدر عن متكلم، والمعنى الذي تتضمنه هذه الألفاظ هو عبارة عن فكر المتكلم وعاطفته،

(١٠) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأصفهاني، ج٢ص٢٩٢.
(١١) يُنظر: النظم والسياق، المفهوم الانفصالي والعلاقة الاتصالية، المثنى عبد الفتاح، مجلد (١١)، عدد(١)، ص١٨.
(١٢) نظرية السياق القرآني، المثنى عبد الفتاح، ص١٤.

بالإضافة إلى المستمع وثقافته، ضمن السياق الاجتماعي العام، وسياق الموقف الخاص، فالذي يصنع الكلام هو هذه المكونات مجتمعة، فتحليل النص في الفكر الحداثي يقوم على استجماع هذه المكونات ومن ثَمَّ تكون عملية التحليل لاستخراج الدلالة والمعنى.

فمعاني الألفاظ يجب أن تكون مستنبطة ومأخوذة من السياق الداخلي (اللفظي)، والسياق الخارجي معاً، ولا يصح في المدرسة السياقية أن يُتوصل إلى مقصود المتكلم دون إشراك السياق الخارجي بمكوناته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والبيئية والتاريخية والنفسية، في عملية تحليل الخطاب، فيرى مالينوفسكي(١٣)، وتبعه على ذلك فيرث بتوسع أن "اللغة لا قيمة لها إلا في سياقها الموقفي، وينص على أن الكلام شيء ديناميكي، لأنه نشاط شخصي واجتماعي"(١٤)، "فالمعنى عند فيرث كلٌّ مركب من مجموعة من الوظائف اللغوية، وأهم عناصر هذا الكل هو الوظيفة الصوتية، ثم المورفولوجية، والنحوية، والقاموسية، والوظيفية الدلالية لسياق الحال"(١٥).

والمدرسة التداولية قريبةٌ من المدرسة السياقية، فهي لا تدرس البنية اللغوية المجرَّدة، بقدر ما أنها تدرس اللغة المستعملة ضمن سياق خطاب ومتكلم ومخاطَب ودلالة ومقصود محدد، وبالتالي فالتداولية تدرس اللغة باعتبارها الاستعمالي؛ لأن اللغة هي الاستعمال، لا باعتبارها المعجمي الدلالي، وهذا يجعلها منهجاً يدرس النص اللغوي لا بالاعتبار اللغوي، بل باعتبار استعمال المتكلم ضمن بيئة، ونفسية مخاطَب، ومقصود متكلم لا يُفهم إلا على ضوء البيئة التي قيل فيها الخطاب(١٦).

وقد بدأ مفهوم سياق الموقف على يد علماء الاجتماع، حيث استعمل مالينوفسكي مصطلح (Context of Situation) سياق الحال أو (الماجريات) (١٧)، ثم تطوَّر هذا المصطلح تطوراً آخر باستعمال فيرث له في دراسته اللغوية، وسياق الحال عند فيرث هو نوع من التجريد من البيئة، أو الوسط الذي يقع فيه الكلام، وهذا التجريد يقوم به اللغويون للوفاء بدراستهم، وسياق الحال يشمل أنواع النشاط اللغوي جميعاً، كلاماً وكتابةً، ولسياق الحال جملة من العناصر المكونة للموقف الكلامي وهي:

١- شخصية المتكلم والسامع، وتكوينهما الثقافي.

---

(١٣) يُنظر: علم الدلالة إطار جديد، بالمر، ص٧٤.

(١٤) المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، محمد العبد، ص٤٠.

(١٥) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، ص٢٥٣.

(١٦) يُنظر: التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، ص٢٦.

(١٧) يُنظر: مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص٢٥١.

٢- العوامل والظواهر البيئية الاجتماعية ذات العلاقة باللغة والسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي كحالة الجو إن كان لها دخل، وكالوضع السياسي، وكمكان الكلام.

٣- أثر النص الكلامي في المشتركين، كالاقتناع، أو الألم، أو الإغراء أو الضحك[١٨].

وعُرِّف سياق الموقف بأنه: "الموقف الفعلي الذي حدث فيه الكلام، ولكنه يقود إلى نظرة أوسع للسياق، تضم الخلفية الثقافية التي وضع الحدث الكلامي بإزائها"[١٩]، وعرَّفه تمام حسان بقوله: "توالي الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي، وكانت ذات علاقة بالاتصال، ومن هذه الناحية يسمى السياق سياق الموقف"[٢٠]، وعرَّفه الخولي بأنه: "السياق الذي جرى في إطاره التفاهم بين شخصين، ويشمل ذلك؛ زمن المحادثة، ومكانها، والعلاقة بين المتحادثين، والقيم المشتركة بينهما، والكلام السابق للمحادثة"[٢١]، وبعبارة أبسط مما تقدم أقول: هو المحيط الخارجي الذي قيل فيه الكلام، وبعبارة أخرى: هو ما يستدعي الألفاظ المناسبة بحسب علم المتكلم وتقديره للموقف، واستجابة المستمع لما يُقال.

وبعضهم عرَّف سياق الموقف ضمن تعريفه للسياق عموماً: "إطار عام تنتظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية، ومقياس تتصل بوساطته الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداولية ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النص للقارئ، ويضبط السياق حركات الإحالة بين عناصر النص، فلا يفهم معنى كلمة أو جملة إلا بوصلها بالتي قبلها أو بالتي بعدها داخل إطار السياق"[٢٢].

وقد استدلَّ معظم المعاصرين على سياق الموقف بعبارة "لكل مقام مقال" التي أُخذت من عبارة بشر بن المعتمر، وإن كنت لا أتفق تمام الموافقة في كون مراد بشر هذا الذي ذهب إليه الحداثيون من بيانٍ لسياق الموقف، وقد زعم بعض المعاصرين أن فكرة المقام والمقال هي أساسٌ لتحليل المعنى[٢٣]، على أنَّ عبارة بشر في أساسها هي فكرةٌ لصناعة البلاغة، وإنشاء المعاني في ألفاظها المناسبة لإفهام المخاطَبين، وإن كان تحليلُ المعنى هو درجةٌ متراخية عن هذه الفكرة، ومنهج نقدي لفهم مقاصد الكلام، ولنقف مع العبارة بأكملها ليتضح لنا مقصد المتكلم.

---

(١٨) يُنظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، ص٢٥٢.

(١٩) معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، محمد شكري عياد، ص٥٦.

(٢٠) قرينة السياق، تمام حسان، ص٣٧٥.

(٢١) معجم علم اللغة النظري، محمد علي الخولي، ص٢٥٩.

(٢٢) منهج السياق في فهم النص، عبد الرحمن بودرع، ص٤٣.

(٢٣) يُنظر: اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص٣٣٧.

يقول بشر بن المعتمر: "والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتَّضِع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدارُ الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامي والخاصيّ، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، على أن تُفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام"(٢٤).

فهذه العبارة من عبارات القوم الثابتة، ولها شأن في عقول الأدباء واللغويين، وهي غير مقتصرة على ما أراده المتأخرون، بل تتعداه إلى بيان منهج اختيار الألفاظ الأنسب للمعاني، وترك الألفاظ المتقعرة أو السوقية، إلى الألفاظ التي تحرز الشرف في الإفهام، فعبارة لكل مقام مقال، ليست نصاً في سياق الموقف كما تُوهِّمَ، بل هي ضمن بناء منهجٍ في الكتابة والكلام؛ لإحراز الصواب وبيان المقصود، والتخلص من سوء الإفهام، وأما سياق الموقف الكاشف عن معنى الكلام فيُؤخذ من تضاعيف معنى العبارة لا من جذرها وأصلها؛ لأن العبارة قيلت في أدب إنشاء الكلام، وحسن إيصال المعنى إلى المخاطَب، لا العكس، فمعنى المقام في كلام بشر هو الموضوع والمعنى، وأما المقال فهو الألفاظ المختارة لتلك الموضوعات والمعاني، وأما حال الخطاب فهو مراعاة المخاطَب في قدرته على الفهم والاستيعاب، على قاعدة خاطبوا الناس على قدر عقولهم، فلا يصح مخاطبة العوام بألفاظ الخواص، كما أنه من غير المقبول الاتضاع في مخاطبة الخواص بألفاظ العوام المبتذلة، ومن هنا يتضح الفرق بين هذه العبارة، ومراد الحداثيين بسياق الموقف.

ومن هنا فإنَّ ما ذهب إليه تمام حسان بأنه "لم يكن "مينالوفسكي" وهو يصوغ مصطلحه الشهير (Context of situation) يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها، إن الذين عرفوا هذا المفهوم قبله سجلوه في كتب لهم تحت اصطلاح "المقام"، ولكن كتبهم هذه لم تجد من الدعاية على المستوى العالمي ما وجده اصطلاح "مالينوفسكي" من تلك الدعاية بسبب انتشار نفوذ العالم الغربي في كل الاتجاهات، وبراعة الدعاية الغربية الدائبة"(٢٥).

أقول: إنَّ ما ذهب إليه تمام حسان ليس دقيقاً في بيان العلاقة بين فكرة سياق الموقف في المدارس الحداثية الغربية، وبين فكرة المقام في تراثنا العربي، ذلك أن سياق الموقف هي فكرة ليست أصيلة، بل هي أشبه بأفكار الصدفة(٢٦)، ففي حين أنَّ المنهج السياقي طارئ في الفكر الحداثي، هو أصيل في التراث

---

(٢٤) البيان والتبيين، الجاحظ، ج١ص١٣٦، طبعة الخانجي.

(٢٥) اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص٣٧٢.

(٢٦) القصة التاريخية المشهورة أن مالينوفسكي عندما ذهب إلى إحدى جزر تروبرياند، وجد فيها كتابات قديمة، فحاول قراءتها قراءة متأنية، محاولاً اكتشاف الشيفرة الخاصة بهذه اللغات كما صنعت الحملة الفرنسية على مصر عندما زعمت عثورها في مدينة رشيد على حجر قديم، مكتوب عليه ثلاث لغات، إحداها اليونانية القديمة، والثانية السريانية، والثالثة

الإسلامي، وبالتالي فهو يختلف من حيث التأصيل والاعتبارات الخصوصية للنصوص العربية عموماً، والنص القرآني خصوصاً، فالفكر الحداثي لا يفرق بين النص الإلهي، والنص البشري، حيث يتعامل مع النصين بالمنظار ذاته، أو لِنَقُل إنه لم يرتقِ مستوى التعامل مع النصين باعتبارات منهجية تأخذ منحى الرعاية في مصدرية كلِّ نصٍ، وهذا طبيعي بالنسبة للفكر الحداثي، باعتبار غياب الفلسفة الإسلامية عن التصور الحداثي، أو بسبب انتشار ثقافة الإلحاد باعتبارها أحد مكونات الثقافة الغربية المعاصرة.

بالإضافة إلى المتقدم فإنَّ منهج المدرسة السياقية التي يتزعمها الإنجليزي "فيرث"، كان غامضاً غير واضح في بيان فكرة سياق الموقف(٢٧)، على أنَّ فيرث أحسن حظاً من مالينوفسكي حيث نظر الأخير إلى سياق الحال على أنه "جزء من العملية الاجتماعية الذي يمكن تأمله منفرداً"(٢٨)، بينما جعل فيرث سياقَ الحال أداةً من أدوات فهم الكلام؛ كالوظائف النحوية(٢٩).

فيرى فيرث أنَّ "السياق يشمل المشارك البشري أو المشاركين: ماذا يقولون؟ وماذا يجري؟ ويجد فيه عالم الأصوات سياقه الصوتي، كذلك النحوي والمعجمي يجد أن سياقاتهما فيه. وإذا أردت أن تبحث عن الخلفية الثقافية الأصلية فعليك بسياقات خبرة وتجارب المشاركين، فكل شخص يحمل معه ثقافته، وجزءاً كبيراً من واقعه الاجتماعي أينما ذهب، وبعد فراغ عالم الأصوات والنحوي والمعجمي من عملهم يعقب ذلك عملية التكامل الكبرى التي تفيد من عملهم في الدراسة الدلالية"(٣٠).

على أن هذه المدرسة كان عليها أن تبين بالتفصيل شروط سياق الموقف وضوابطه ومتعلقاته الوظيفية والدلالية والإيحائية، وهذا إن دلَّ على شيء فهو يدل على أن المدارس الحداثية ما زالت في طور البداءة الغامضة، والذي يظهر أن التقعر وهوس الابتكار للنظريات الحداثية أصبحت "موضة" حداثية،

الهيروغليفية المصرية القديمة، وبعد مرور عقدين من الزمن استطاع الفرنسيون حل شيفرة هذا الحجر، وقراءة ما جاء فيه، وبالتالي قراءة اللغة المصرية القديمة، وربطها باللغة اليونانية "الأوروبية القديمة"، والسريانية، لتوثيق العلاقة بين المصريين القدماء والأوروبيين، ثقافياً ودينياً وتاريخياً، وقطع العلاقة باللغة العربية وما يتصل بها، فلسان حال مينالوفسكي عندما أعلن عن استحالة قراءة اللغة بدون سياق المقام، فكانت فكرة سياق الموقف عبارة عن رفض أفكار المدرسة البنيوية، ومن جهة أخرى تشكيك ضمني بما قام به الفرنسيون، أقول: هذه الفكرة التي هي عبارة عن فكرة غير أصيلة في الفكر الأوروبي، والتراث اليوناني، مع أنها من بدهيات الفكر العربي، والتأصيل الإسلامي في فهم النص اللغوي عموماً، لكن باعتبارات خاصة، وبمنهج متباين عن المنهج الذي نادت به المدرسة السياقية.

(٢٧) علم الدلالة لأحمد مختار عمر، ص٧٣.

(٢٨) علم الدلالة إطار جديد، بالمر، ص٧٧.

(٢٩) علم الدلالة إطار جديد، بالمر، ص٧٧.

(٣٠) الدلالة اللغوية عند العرب، عبد الكريم مجاهد، ص١٥٩.

بقطع النظر عن عمقها أو أثرها البعيد، وهذا يجعل نظرتنا لهذه النظريات ذات ريبة لا من حيث حسنُ القصد أو قبحُه، بل من حيث قوة المطروح وضعفُه، فالباحث عليه ألّا يتعجل في تلقي نظرياتٍ لم تصمد بعد على محكات النقد، فالطرح السياقي ما زال غامضاً في فكرته الكلية، وفي تفصيلاته وتفريعاته.

ولو نظرنا مثلاً في نظرية الملاءمة في المدرسة التداولية، المنبثقة عن علم النفس المعرفي، نرى ضرورة ملاءمة الملفوظ لنفسية المخاطَب(٣١)، فهل هذه الملاءمة منضبطة؟ أو أنها تخضع لظروف بيئية وأخرى اجتماعية؟ فنظرية الملاءمة تفرض وجود علم اتصال قائم على أبعاد نفسية بين المتكلم والمخاطَب، وبالتالي يشترط لتأثير الكلام في المخاطَب أن تكون هناك ملاءمة لنفسيته وثقافته، نعم قد يُقبل هذا في الخطاب التربوي، أو الثقافي، لكن كيف سيكون في النص القرآني؟! ومن هو المخاطَب الذي يُلاءم؟! هل هو مخاطَب معيَّن؟ أو عموم المخاطبين؟ في زمن محدد أو عموم الأزمان؟ فهذا غير متصوَّر في الخطاب القرآني؛ لأن الخطاب القرآني نزل في زمن وهو يناسب جميع الأزمان، وخاطب أقواماً وهو يُناسب جميع الأقوام والأمم؛ ولذا يجب استبعاد النص القرآني عن تطبيقات المدرسة التداولية(٣٢)، وجعلُه عُرضة للتطبيق التداولي!

وكتب بالمر كلمة تعكس موقف بعض علماء اللغة في الغرب من نظرية فيرث؛ لنتبيَّن نحن كذلك أنَّ هذه النظرية غير مكتملة، وغير ناضجة، وغير واضحة وضوحاً تاماً بعد عند الجميع، وما هي إلا محاولة لقراءة النص الأدبي، والمحاولات أياً كان مصدرها غير مدفوعة جملةً وتفصيلاً، بل المطلوب عرضها على ميزان النقد؛ لأخذ الصالح منها، ودفع المتزعزع، يقول بالمر: "من السهل أن نسخر من النظريات السياقية مثلما فعل بعض العلماء، وأن نرفضها باعتبارها غير عملية، لكن من الصعب أن نرى كيف يمكننا أن نرفضها دون إنكار الحقيقة الواضحة التي تقول بأن معنى الكلمات والجمل، يرتبط بعالم التطبيق، إن مزيَّة

---

(٣١) التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، ص٢٦.

(٣٢) تقوم نظرية الملاءمة على اعتماد علم النفس المعرفي، وغيره من العلوم النفسية والاجتماعية في مراعاة المخاطَب، بمعنى أن المتكلم يُخضع كلامَه عند الخطاب لنفسية المخاطَب، وحينئذ يصبح الخطاب – أي: الكلام – صادراً عن متكلم ومخاطَب على ضوء نظرية الملاءمة، وبعبارة أخرى فإن المخاطَب كان له الأثر في الخطاب، وهذا لا يصح تطبيقه على كلام الله تعالى، أما مراعاة أحوال المخاطبين في تراثنا العربي والبلاغي فموضوع آخر، إذ مراعاة المخاطبين هي مراعاة الأفهام لا النفسيات، بمعنى أن القرآن نزل بما يفهمه العربي، لا بما يلائم نفسيته وثقافته، فشتان بين الأمرين، وهذا من الأمور التي ابتلي بها المثقفون العرب في عدم بلوغهم درجة التمييز بين المصطلحات الحداثية التي أدخلت كثيراً من الباطل تحت طيات مصطلحات التراث.

اتجاه فيرث أنه شرع في عرض صياغات جزئية للمعنى فحسب، وقد يكون هذا هو كل ما نأمل بلوغه في أي وقت"[٣٣]، نعم لعله يكون أكبر مأمول يصله الطرح السياقي الحداثي.

إذا كانت هذه نظرة مالينوفسكي وفيرث لسياق الموقف، باعتباره أحد أركان قراءة المعنى، فنجد أن لبلومفيلد رأياً آخر، حيث يرى أن المعنى هو الموقف، فهو يرى أن المعنى انعكاس للموقف بجميع اتجاهاته الظاهرة والباطنة[٣٤]، نعم قد يبدو هذا صحيحاً في بعض المواقف التي تصنع المعاني، لكنه يبقى محصوراً في مواقف محددة، لا يتجاوزها النظر.

وفي ظني أن هذا الاضطراب الذي وقع داخل المدارس السياقية والتداولية ما هو إلا بسبب غياب الفهم المنهجي المتكامل للغة، وعدم الانطواء تحت منهج يوحد النظرات في قراءة النصوص، فكثُرت النظريات والاتجاهات، فتكاثرت عليها الانتقادات، وحال هذه المدارس حال علماء الاجتماع في الدراسات الاجتماعية، فإن لكل عالم اجتماع ملحوظاته الخاصة بمجتمع عينة الدراسة، فكذلك الأمر بالنسبة لأصحابنا السياقيين، فإنَّ نظرتهم تُبنى على ملحوظات فردية، ثم تتغير بنظريات أخرى، وهكذا دواليك.

ولو أنَّهم وحدوا المنهج، وبنوه على نظرات لغوية محضة، بعيداً عن استعمال أدوات العلوم الأخرى، وأقاموا نظرتهم على أسس لغوية، مستعملين سياق الموقف باعتباره موضحاً لا صانعاً؛ لانتهى الأمر بهم إلى تقارب منهجي في التأصيل، ولأخرجهم من دوَّامة تعدد الاحتمال الموصل إلى تعدد الرؤى والاتجاهات.

ثانياً: أنواع السياق في الفكر الحداثي:

نظرت المدرسة السياقية الحداثية إلى السياق باعتباره مجموعة من الألفاظ المرتبة التي هي نتاج لمجموعة من العوامل الداخلية والخارجية، وبناءً على ذلك جعلت السياق أربعة أنواع وهي:

السياق اللغوي: الذي يعين معنى الكلمة في نص لغوي.

السياق العاطفي: الذي يحدد درجة القوة والضعف في الانفعال، مما يقتضي تأكيداً أو مبالغةً أو اعتدالاً.

سياق الموقف: وهو السياق الخارجي الذي تقع فيه الكلمة، وسيأتي الكلام عليه تفصيلاً.

السياق الاجتماعي: وهو الذي يحدد المحيط الثقافي الذي تُقال فيه الكلمة[٣٥].

وجهة نظر الباحث في هذا التقسيم: هناك ملاحظتان على هذا التقسيم وهما:

---

(٣٣) علم الدلالة إطار جديد، بالمر، ص٧٧.

(٣٤) علم الدلالة إطار جديد، بالمر، ص٨١.

(٣٥) يُنظر: علم الدلالة لأحمد مختار عمر، ص٦٩.

الأولى: يرجع هذا التقسيم إلى أصلين اثنين؛ **الأول**: السياق الداخلي، ويدخل فيه السياق اللغوي والعاطفي، و**الثاني**: السياق الخارجي، ويدخل فيه سياق الموقف والسياق الاجتماعي، فأما السياق الداخلي فهو عبارة عن كلام لغوي صدر عن متكلم، والمتكلم له انفعالاته النفسية التي بها يؤكد الكلام إثباتاً أو إنكاراً، وأما السياق الخارجي فهو عبارة عن سياق الحال الذي قيل فيه الكلام وهو يمثل (السياق الخارجي الخاص)، والسياق الاجتماعي (العرفي) الذي يحدد معنى الكلمة في العرف وهو يمثل (السياق الخارجي العام)، وكلاهما سياق خارجي، فالموقف والعرف هما عبارة عن أثر الخارج في الملفوظ، كما أن السياق اللغوي هو عبارة عن أثر الداخل في الملفوظ، فاللغة هي أثر العقل في الملفوظ، ودرجة الانفعال هي أثر النفس في الملفوظ، فبات عندنا نوعا سياق، وهما: السياق الداخلي، والسياق الخارجي.

الثانية: هذا التقسيم لا غبار عليه من حيث إنه تقسيم للكلام باعتبار الملفوظ، والخارج المؤثر في الكلام، وهو يعني أن السياق هو عبارة عن اتساق متكامل بين النص اللغوي والسياق الداخلي والخارجي، فالنص يمثل الكلام المكتوب أو الملفوظ، والسياق الداخلي يمثل ترتيب الكلام ونفسية المتكلم، والسياق الخارجي يمثل الموقف المؤثر في الكلام، حيث إن الموقف الخارجي هو مُنتجٌ للنص، فالكلام انعكاس لأثر الداخل (العقل والنفس)، والخارج (الموقف الخاص والعرف العام) في الملفوظ، وعليه فالنص اللغوي في حقيقته ما هو إلا نتاج تفاعلات داخلية وخارجية، نتج عنها النص اللغوي، الذي يتكون من سياق داخلي وآخر خارجي، وهما يمثلان كتلةً لفظية ودلالية في آن، ولا يستطيع الناقد في المدارس الحداثية السياقية والتداولية أن يفصل بين نوعي السياق، فإذا أراد أن يحلل نصاً ما فعليه أن يضع نُصب عينيه أثر هذين النوعين في النص اللغوي باعتباره منتجاً نفسياً عقلياً اجتماعياً؛ ليستطيع أن يحلل النص تحليلاً سليماً.

والمقصود في تحليل النصوص عند الحداثيين هو الوصول إلى مقصود المتكلم(٣٦)، فالقراءة الحداثية تمثل في جملتها محاولة تحليلية استنباطية للخروج بمعانٍ ثانوية وخفية، أن الواقع الخارجي هو أحد الأدوات الفاعلة الكاشفة عن كُنه النص، وهو كفيل بإخراج المعاني بأدوات تحليلية اجتماعية، كما هو الأمر في نظرية أفعال الكلام، والفعل الإنجازي عند أوستن وسيرل، وقد وجدت المدرسة البنيوية انتقاداً كبيراً من قبل المدرسة السياقية، وعلى الأخص في موضوع قراءة النص اللغوي بغير أدواته(٣٧)، فالبحث عن المعنى اللغوي بغير أداة اللغة هو خروج عن منطق الأشياء، فكما أن العلم التجريبي يرفض التحليل العقلي بغرض الوصول إلى الاكتشافات العلمية، فكذلك لن تصل الأدوات العلمية إلى علم الدلالة في النص اللغوي.

---

(٣٦) يُنظر: بحث "أي دور للمقام في بناء الخطاب الديني وتوجيه مقاصد القول؟ عبد الرزاق الدغري، ص٢٢٩.

(٣٧) يُنظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص٧٣.

وما تقدم قد يكون مقبولاً في التراث العربي الخاضع لمقاييس قراءة النص عموماً، وكثيرٌ من تلك الأفكار المبثوثة في كتب الحداثة موجودة في تراثنا العريق، وبصورة أدق وفكرة أعمق(٣٨)، لكن الذي يحتاج منا إلى وقفة متأنية، هو تقسيم النص القرآني بناءً على هذا المفهوم، وهذا يعني ضمناً أن النص القرآني أثَّر فيه عاملان وهما الداخلي والخارجي، أما السياق الداخلي فهو مرفوض؛ لأن القرآن كلامُ الله تعالى الصادرُ عن علمه تعالى: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف:٥٢]، والله سبحانه وتعالى قد {أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق:١٢].

فالقرآن الكريم إنما صدر عن علم الله تعالى، فلا يصح أن يُقال: إن القرآن له سياقان داخلي وخارجي، أو لغوي وعاطفي وخارجي واجتماعي، وأن هذه الأنواع أثَّرت في القرآن الكريم، فأصبح منتَجاً لها(٣٩)؛ ذلك أن هذا القول يؤدي بنا إلى ترسيخ فكرة خطيرة تضرب قرآنية القرآن، وتثير زوبعةً من الشبهات والشكوك حول مصدر القرآن، فإذا كان للقرآن الكريم سياق خارجي بالمفهوم الحداثي، فهذا يعني أن سياق الموقف أثره في اللفظ هو أثر إنتاج لا أثر إفهام، وهذا ما يجعل الباحث في الدراسات القرآنية يتوقف مليَّاً مع هذا التقسيم؛ ويُعيد النظر في جواز الاستعمال كما سيأتي بيان ذلك تفصيلاً.

والذي يذهب إليه الباحث أن السياق القرآني له نوعان أساسيان، النوع الأول: السياق الكلي، وله صورتان، السياق الكلي المقطعي، والسياق الكلي على مستوى السورة، والنوع الثاني: السياق الجزئي، وهو يمثل المعنى الجزئي للحرف، أو المفردة أو التركيب، أو الجملة، أو الآية، والمعاني الجزئية المتتابعة تمثل السياق، وهو ينتهي بالسياق الكلي الذي هو عبارة عن مقصود المتكلم من مجموع الكلام.

المبحث الثاني: الفرق بين سياق الموقف وأسباب والنزول ومقتضى الحال:

لم يفرق بعض الباحثين المعاصرين بين سياق الموقف وأسباب النزول في علوم القرآن من جهة، وبين سياق الموقف ومقتضى الحال في علم المعاني من جهة أخرى(٤٠)، فجعلوا سبب النزول ومقتضى الحال المصطلحين التراثيين اللذين يقومان مقام سياق الموقف، وعليه فمفهوم سياق الموقف مبثوث في تراثنا العريق، وما قاله الغربيون لا يخرج عما جاء في تراثنا، وبناءً على ذلك ترتبت نتيجة مفادها: أن سياق الموقف الذي نادت به المدرسة السياقية بزعامة فيرث، والمدرسة التداولية بزعامة أوستن حاضر في التراث

---

(٣٨) يُنظر: بحث "دلالة السياق بين عبد القاهر الجرجاني وسابقيه"، أسامة عبد العزيز، ص(٢٨٣).

(٣٩) جاء في إحدى الرسائل العلمية النص الآتي: "ثم نقوم بالكشف عن ظروف إنتاج الخطاب، بذكر أسباب النزول، والظروف المحيطة بالموقف الكلامي، مع تحديد أطراف الخطاب، وتحديد الصيغة التعبيرية" يُنظر: الأفعال التداولية في القرآن الكريم، سورة البقرة أنموذجاً، أطروحة دكتوراه، للطالب محمد مدور، صفحة (د).

(٤٠) يُنظر: اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص٣٧٠.

الإسلامي، لا يختلف عنه في شيء، وهذا ما حدا ببعض الباحثين أن يكتبوا بحوثاً أكاديمية لنيل شهادات عليا في تطبيق هذه المفاهيم على القرآن الكريم، باعتبار اتحاد المفهوم التراثي بالمفهوم الحداثي.

المطلب الأول: الفرق بين سياق الموقف وأسباب النزول:

يختلف مفهوم سياق الموقف في الفكر الحداثي عن مفهوم سبب النزول، وذلك أن سبب النزول الذي نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة حكمه أيام وقوعه(٤١)، هو عبارة عن حدث اجتماعي، أو سياسي، أو قضائي، أو اقتصادي، أو دعوي، أو عسكري، نزلت فيه آيات تبين حكمَه، أو الواجبَ تجاهه، أو إرشادَه للمخاطبين، فسبب النزول هو الحدث الذي ينزل فيه قرآن، لا الذي يُقال فيه قرآن، وبناءً على ذلك فهناك فرق بين النزول والقول، وأنا لا أتكلم عن الآية أو المقول، بل عن ذات النزول من حيث مصدره وكيفيته ومقاصده وأثره، وبيئة القول من حيث دوافعه وثقافة المتكلم والمستمع ودوافع القول وتأثيره، ومن هنا أسجل مجموعةً من الفروق بينهما على النحو الآتي:

١. النزول وصف خاص بآيات القرآن الكريم؛ وأما القول ففي غير القرآن، فما يصدر عن متكلم في حادثة فهو القول، فالعلاقة بينهما علاقة تباين.
٢. مقصد النزول يكون للإرشاد والإصلاح والتوجيه والهداية والشفاء، أما القول فليس بالضرورة أن يكون مقصده كذلك، بل قد يكون بقصد الإفساد والفتنة، وقد يكون بغرض الإصلاح.
٣. النزول متصف بالكمال المطلق؛ لأنه صادر عن علم الله تعالى، أما القول فقد يصدر عن هوى، أو فكر، أو توجه سابق، فهو مرتبط بإدراك المتكلم أو بهواه الذي صدر عنه.
٤. النزول مُلزمٌ لكل مكلف، أما القول فهو غير ملزم ما لم يكن عن جهة ملزمة.

فهذه الفروق بين النزول والقول، تقودنا لإدراك الفرق بين سبب النزول، وسياق الموقف، فأما سبب النزول، فهو الحدث الذي نزل فيه قرآن، فالقرآن النازل مؤثر في الحدث غيرُ متأثرٍ به، فهو ليس منتَجاً لما حدث، بل موجّه ومرشد لمن نزل فيهم القرآن، أما سياق الموقف، فهو الذي يُنتج القول، ويُؤثر فيه، وذلك ناشئ عن فكرة العموم السياقي، أي تداخل السياق اللغوي والعاطفي والاجتماعي والموقف فيما بينها لإنتاج الخطاب، فالخطاب لا يكون إلا بفهم أبعاد السياق كلها؛ لإدراك الخطاب من جميع جوانبه، وعليه فالخطاب هو منتَجٌ من هذه الأنواع كلها، ولذلك فهو عُرضة للخطأ والخلل، بخلاف القرآن الكريم، فهو صادر عن علم الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبناءً على السابق فإن سبب النزول ما هو إلا سبب ظاهر غير مؤثر في الخطاب القرآني؛ لأن الخطاب القرآني صادرٌ عن علم الله تعالى، وعلمُه سبحانه سابقٌ لما حدث، وإن نزل عند وقوع الحدث،

(٤١) يُنظر: مناهل العرفان، الزرقاني، ج١ص١٠٦.

وتعلَّق بذات الحدث، فكون القرآن نازلاً في حدث معيَّن، وأشخاص معينين، وزمان ومكان معينين، فإنَّ هذا لا يعني ألبتة خصوصية الخطاب القرآني؛ لأن الخطاب – وإن تعلَّق في ظاهر الأمر بحدث خاص – في قوة العام في معناه ودلالته ومقصده وأثره، ولذلك لم يقل أحد من المفسرين: إنَّ سورة المسد خاصة بشخص أبي لهب، بل هي عامة في كل من اتصف بصفته، وجاء بفعله.

نعم ألفاظ السورة ارتبطت بشخوص وحدث، لكن معناها ارتبط بفعل وسلوك، وهي تصدق على كل من عادى دين الله تعالى، فصدَّ عنه، وسعى للإفساد ونشر الكفر، فإنَّه داخلٌ في حكم الهلاك والتباب، فالعبرة في مقصود الخطاب ومعناه، لا في تعلقه الظاهر ومبناه، يقول شيخ الإسلام: "لم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فيعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ"(٤٢).

ويقول ابن الزبير: "هذه السورة وإن نزلت على سببٍ خاص، وفي قصة معلومة، فهي مع ما تقدمها واتصل بها في قوة أن لو قيل: قد انقضى عمرك يا محمد، وانتهى مما قلدته من عظيم أمانة الرسالة أمرك، وتأدية ما تحملته وحان أجلك، وأمارة ذلك دخول الناس في دين الله أفواجاً، واستجابتهم بعد تلكؤهم، والويل لمن عاندك وعدل عن متابعتك، وإن كان أقرب الناس إليك"(٤٣).

وجاء في محاسن التأويل: "قد أنزل الله في أبي لهب وفي زوجته هذه السورة، ليكون مثلاً يعتبر به من يعادي ما أنزل الله على نبيه، مطاوعة لهواه وإيثاراً لما ألفه من العقائد والعوائد والأعمال، واغتراراً بما عنده من الأموال، وبما له من الصولة أو من المنزلة في قلوب الرجال، وأنه لا تغني عنه أمواله ولا أعماله شيئاً، وسيصلى ما يصلى"(٤٤).

ولذلك فإنَّ هذه السورة لا يصح أن نجعلها استجابةً لسياق الموقف الذي نزلت فيه؛ فإنَّ في ذلك تهمةً للنبي صلى الله عليه وسلم، ورمياً غير مباشر للقرآن الكريم، بتربية المؤمنين على القسوة في الخطاب، ومعاملة المدعوين معاملةً خالية من الرفق واللطف، وقد أشار إلى هذا محمد عطية سالم رحمه الله تعالى، بأنَّ منهج القرآن قائم على الملاطفة في الدعوة، ما دامت الاستجابة متوقعة، فلما وقع الإياس من الاستجابة كان الدعاء بالهلاك هو الأنسب(٤٥).

---

(٤٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج١٣ص٣٣٩.

(٤٣) البرهان في تناسب سور القرآن، الغرناطي، ص٣٨٣.

(٤٤) محاسن التأويل، القاسمي، ج٩ص٥٦٥.

(٤٥) أضواء البيان، الشنقيطي، ج٩ص١٤٥.

فالخطاب القرآني هو معنى منظوم، وهذا المعنى هو ما أراده سبحانه وتعالى بكلامه النازل، عَلِمَه من عَلِمَه، وجَهِلَه من جَهِلَه، فالكتاب المفصَّل على علم الله تعالى، لا يكون متأثراً بحدث بشري قاصر؛ لأن التأثر يعني ضمناً قصور الخطاب القرآني عن أن يكون صادراً عن علمه سبحانه وتعالى، وهذا مخالف للنصوص القرآنية التي أثبتت صفة العلم له سبحانه، وأثبتت أن القرآن مفصل على علمه: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف:٥٢]، فالقول بأن الخطاب القرآني متأثر بالأسباب التي نزل بها، يعني أن الخطاب القرآني طرأ عليه شيءٌ ليس منه بسبب حدث بشري، وهذا يتنافى مع صفة علم الله تعالى.

وهناك حرج آخر ينشأ عن هذا القول وهو؛ إذا كان القرآن النازل على أسباب خاصة متأثراً بها! فلماذا لا يكون القرآن النازل على غير أسباب خاصة قد تأثر بأسباب عامة؟! وهذا يقودنا إلى الافتراء العظيم الذي قاله المشركون قديماً[٤٦]، والمستشرقون حديثاً، بأن القرآن ابن بيئته، نزل في مكة بأسلوب، غير الأسلوب الذي نزل فيه في المدينة، كما ستأتي الإشارة إلى هذه الشبهة، ولذلك ذهب "فيرث إلى أن الوظيفة الدلالية لا تتأتى إلا بعد أن تتجسد القولة في موقف فعلي معين، أي: بعد أن تخرج من خانة الوجود الوضعي الكامن، إلى حيز الوجود الاستعمالي الفعلي، وهو أمر لا يتحقق إلا في سياق الموقف"[٤٧]، ولذلك قال تمام حسان: "وبحسب هذا الفهم الشامل لفكرة المقام يعتبر النص المقال – منطوقًا كان أم مكتوبًا –، غير منبَتٍّ عمن ساقه ومن سيق إليه، ولو أننا حاولنا فهم المقال منفصلًا عن المقام؛ لجاء فهمنا إياه قاصرًا مبتورًا أو خاطئًا"[٤٨].

ففكرة سياق الموقف بالمفهوم الحداثي تصدق على النص البشري، بجميع العوامل المؤثرة فيه، المقالية والمقامية، لكنها في كلام الله سبحانه وتعالى غير صادقة، وعليه فلا يصح أن نقول: إنَّ أسباب النزول هي سياق الموقف، وهذا يدفعنا إلى تلخيص الفرق بين سبب النزول وسياق الموقف في الآتي:

١- سبب النزول مقتصر على البيان والإفهام، بخلاف سياق الموقف فدوره يتعدى ذلك إلى كونه موجداً للخطاب ومؤثراً فيه.

---

(٤٦) اتهم المشركون قديماً النبي صلى الله عليه وسلم بأنه افترى القرآن من نفسه، وأعانه آخرون على ذلك، {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان:٤-٦]، وهذا الاتهام يرمي بحظ وافر في كون القرآن ابن بيئته، وأنه نشأ في سياق اجتماعي بأبعاد بشرية مقصودة، ولذلك كان الرد على هذه التهمة بأن نُسب القرآن إلى منزله المتصف بصفة العلم؛ لأنه كتاب فُصِّل على علم الله تعالى.

(٤٧) نظرية السياق عند فيرث، جبريل محمد عثمان، ص٢٦٧.

(٤٨) اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص٣٥١.

٢- سبب النزول لا يقصر دلالة الآيات القرآنية على زمانٍ أو مكان أو حدث نزلت في شأنه الآيات، بخلاف سياق الموقف فإنَّ الكلام مرتبطٌ بالزمان والمكان والحدث، وقيمة الكلام مرتَهَن بها، وبدونها فإنَّ الكلام فاقدٌ لدلالته الحيوية، وتأثيره النفسي، وفاعليته في الحياة.

٣- سبب النزول حدث بشري يحتاج إلى التأييد الإلهي إرشاداً أو توجيهاً أو هداية أو إقراراً، فهو عنصر تطبيقي، بينما سياق الموقف فهو معيار من معايير صناعة الخطاب، وبدونه فقيمة الخطاب الدلالية ضعيفة، ومعاني الكلام غامضة، فهو عنصر تشاركي.

فهذه أهم الفروق بين سبب النزول وسياق الموقف، وبها يتضح أنَّه لا يصح وصف سبب النزول بأنه يمثل سياق الموقف؛ لما يترتب على ذلك من محاذير خطيرة، على رأسها أن يكون الخطاب القرآني مقتصراً على الحدث الذي نزل في شأنه قرآن، وأن يكون متأثراً بالبيئة التي نزل فيها، فمن هنا كان رفض القول بتنزيل سياق الموقف منزلة أسباب النزول، بالإضافة إلى الأصالة العلمية التي يجب أن يتمتع بها المصطلح العلمي الذي أقرَّه علماؤنا عبر التاريخ الطويل المشرق، فلا يصح أن نُفسد عليهم جهودهم العظيمة في سبيل تنقية العلم الشرعي من آفات فكرية وافدة، ومصطلحات فاقرة.

وقد جاء مجموعة من الآيات الدالة على علم الله تعالى، وغياب ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومشروعية الفهم والتدبر والتفسير بعدم وجود سياقٍ الموقف، وأنَّ سياق الموقف ليس شرطاً في الفهم، فمن ذلك قوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آل عمران:٤٤]، وقوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} [يوسف:١٠٢]، وقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [القصص:٤٤-٤٦]، فهذه الآيات تبين أن فهم الموقف مأخوذ من السياق لا العكس، وهي دليل واضح على أن سياق الموقف ليس شرطاً في فهم النص، كما زعم ذلك بعض الحداثيين، وبالتالي لا يصح وضعه شرطاً.

ما له حكم سبب النزول وأثره في تبديد فكرة سياق الموقف:

كما هو معلوم أن سبب النزول هو عبارة عن حدث مروي ونزلت في شأنه آية أو آيات، فهل نُنَزِّل الفهم منزلة الحدث؟ أي: هل ننزل فهم الواقع الذي نزلت فيه الآيات منزلة أسباب النزول في سبيل فهمها وإيضاحها، لا في سبيل تفسيرها وبيانها؟ بناءً على الافتراض الآتي وهو: صحة قراءة الواقع الذي نزلت فيه الآيات من خلال الآية نفسها، أي: أن تكون الآية كاشفةً عن الواقع ومبينةً له؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة علينا أن نقف وقفة تأملية تطبيقية مع ما ورد من توجيه الإمام الشافعي رحمه الله تعالى لقوله تعالى: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام:١٤٥]، فقد نقل الجويني أن الشافعي قال: "كان الكفار يحلون الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، وكانوا يتحرجون عن كثير من المباحات في الشرع، فكانت سجيتهم تخالف وضع الشرع وتحاده، فنزلت هذه الآية مسبوقة الورود بذكر سجيتهم في البحيرة والسائبة والوصيلة والحام والموقوذة وأكيلة السبع[٤٩]، وكان الغرض منها استبانة كونهم على مضادة الحق ومحادة الصدق، حتى كأنه

(٤٩) قوله تعالى: {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [المائدة:١٠٣] نزل في المدينة متراخياً عن آية الأنعام، بل هو من آخر ما نزل، فيكون المقصود بقوله: "مسبوقة الورود بذكر سجيتهم في البحيرة والسائبة" قوله تعالى: {وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [المائدة:١٣٨-١٣٩]، فذكر أسماء المحرمات الوارد ذكرها في آية المائدة، وأراد آية الأنعام التي ذكرت طريقتهم وسجيتهم في التعامل مع هذه الأصناف من الأنعام، الوارد ذكرها في سورة الأنعام، ويُقال كذلك إن مراده الآيات التي حصرت المحرمات في هذه الأربعة، فإن آخرها نزولاً هي آية المائدة.

قال تعالى: "لا حرام إلا ما حللتموه"، والغرض الرد عليهم، ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك(٥٠) في مصيره إلى حصر المحرمات فيما ذكر الله تعالى في هذه الآيات"(٥١).

وهذا النص عن الشافعي هو فهم فَهِمَه من الآية، لا أنه رواية مروية في سبب نزولها على وجه الخصوص، ولو كان لها سبب نزول لم يخفَ على أحد، لاسيما إمام دار الهجرة، ولروي لنا ذلك في مدونات السنة، فلما كان الأمر كذلك، فهمنا أن الإمام الشافعي تأوَّل الآية من خلال فهمه لواقع العربي المشرك في تعامله مع المطعومات، ومن خلال فهمه لبقية الآيات النازلة في هذا الموضوع، فكان توجيهه للحصر من خلال استنطاقه للآية، وفهمه لخطابها فيما نزلت فيه، لا أنه يروي رواية في بيان ذلك.

وقد علَّق الجويني على صنيع الشافعي فقال: "وما ذكره الشافعي من الكلام على الآية فهو في غاية الحُسن، ولكن ما ذكر لا يفيد الحكم على الآية، بل يُفيد تطرقَ التأويل إليها"(٥٢)، وقد تابعه على ذلك الزركشي حين نقل عنه عبارته بهذه الصيغة: "وهذا قد يكون من الشافعي أجراه مجرى التأويل"(٥٣).

---

(٥٠) تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ ما ذكره الجويني من مذهب الشافعي في دفع توهم الحصر، وكذلك مذهب مالك في الحصر، هما المذهبان الأشيعان في الآية، وفي ظني أن حمل الآية على ظاهرها في الحصر لا يدفعه تأول الشافعي، والقول بالنسخ بعيد ولا دليل عليه، وأما تخصيص بعض المحرمات الواردة في السنة، على طريق جعل المحرمات الأربعة هي العامة، وتخصيص بعض ما ورد في السنة فكذلك بعيد، ولو قلنا بأن قوله تعالى: {عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ} أفاد معنى عرفياً معهوداً من واقع العرب، بأنهم يطعمون مجموعةً من الأنواع كالأنعام والإبل على وجه الخصوص والطيور والضب والأرنب والظباء والجراد والسمك والميتة والدم ولحم الخنزير، وأنَّ هذه الأنواع منها ما أباحت الشريعة أكلَه، ومنها ما حرَّمت أكلَه، فما حُرِّم ذكرته آيات التحريم، وجعلته في أربعة أصناف، ودون ذلك فهو حلال، أقول لو ذهبنا هذا المذهب في الفهم؛ لخرجنا من الخلاف، وأبقينا القرآن على ظاهره، والعرب لا يأكلون الجوارح من السباع والطيور في غالب أحوالهم إلا لضرورة، ولا يأكلون القاذورات والحشرات والديدان، فبات مطعومهم المعروف هو ما يُخاطبون بناءً عليه، فمن هذا المطعوم المعروف ما هو جائزٌ أكله كالضب، ومنها ما هو حرام وهو المذكور في الآيات التي حرمت هذه الأصناف، وبه لا نضطر للقول بالتخصيص، أو النسخ، أو القول بتحريم الكراهة لما ورد في السنة؛ لأنَّ ما ورد في السنة من النهي عن أكل ذوات المخلب وغيرها، هو نهي محمول على التحريم على أصله، وهو إضافة تشريعية أضافتها السنة، والحكمة من عدم إيرادها في الآية هو أن هذه الأنواع الواردة في السنة لا تأكلها العرب إلا لضرورة، فذكر القرآن الغالب على طعام العرب فحرَّم بعضه، وترك تحريم النادر أكله للسنة، فهي إضافة أطعمة جزئية، لأطعمة كلية غالبة في فعل الناس، وأما الحمر الأهلية فحرمتها ليست ذاتية، بل للمصلحة العامة، فلحم الحمار الأهلي حلال كالوحشي، لكن حُرِّم بناءً على المصلحة الشرعية.

(٥١) البرهان في أصول الفقه، الجويني، ج١ص١٣٤.

(٥٢) البرهان في أصول الفقه، الجويني، ج١ص١٣٥.

(٥٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج١ص٢٤.

فصنيع الشافعي هو قراءة لواقع النزول من خلال آيات التنزيل، وهذه القراءة هي قراءة تأويل لا نقل رواية، فوظيفتها البيان وغايتها الاحتمال، ولها حكم سبب النزول من جانب الإفهام لا التفسير، كما أنها تفترق عن سبب النزول في كونها غير ملزمة، فليس لها حكم التفسير، والذي دعاني أن أزجَّ هذه المسألة في هذا البحث هو شديدُ تعلقها فيما نحن فيه، فالحداثيون قالوا بأنَّ النصَّ لا يتضح إلا بفهم سياق الموقف، كما قال تمام حسان: "ولو أننا حاولنا فهم المقال منفصلًا عن المقام؛ لجاء فهمنا إياه قاصرًا مبتورًا أو خاطئًا"(٥٤)، وعليه فسياق الموقف الذي هو أحد الأدوات الدلالية الفاعلة في الوصول إلى المعنى، إن كان غائباً فسيؤثر سلباً على الفهم، وبالتالي فلا بدَّ من وجود سياق الموقف ليكتمل التحليل الدلالي.

وفي هذه المسألة العكس من هذا الطرح هو الصحيح، فالنص قد يُعين على قراءة الواقع الذي نزل فيه القرآن، أي أن الآية أو الآيات هي التي تكشف الحال الذي نزلت فيه الآيات، وهذا ما يجعل النصَّ القرآني مختلفاً في دلالته وقدرته الإيحائية عن النص البشري، فالنص القرآني كاشف عن الحال الذي نزل فيه القرآن، وبه يفترق النص القرآني عن النص البشري، ويتضح الفرق الشاسع بين احتياج النص البشري لسياق الموقف، واستغناء النص القرآني عن ذلك، بل نجد النصَّ القرآني كاشفاً عن الواقع من خلال تحليله، وربطه ببقية النصوص ذات الموضوع الواحد.

ومن هنا يظهر جلياً أنَّ علماءنا لهم إسهامات واضحة في بيان البيئة التشريعية للنصوص القرآنية، وكيف أن تدبر القرآن يقودنا إلى معرفة السياق التاريخي، في محاولة للكشف عن واقع العرب، والإفادة من ذلك في فهم الخطاب القرآني ولغته وأسلوبه، وأن النص القرآني نصٌّ متدفق بالعطاء الدلالي، والإنتاج المعرفي، وأنَّ ما قيل في النص البشري من معايير حاول أصحابها أن يفهموا بها النصوص الأدبية لا تنطبق على القرآن الكريم بأي حال من الأحوال؛ لأنها مجموعة من المعايير تصدق على النص الأدبي البشري، في قراءته وتحليله وفهمه، وليس كل ما فُهم على ضوئه النص البشري، يصحُّ تنزيله على النص القرآني.

فروايات أسباب النزول هي روايات معينة على الفهم، قادرة على تقريب الصورة، لكن لا توصف بأي حال من الأحوال بما وُصف به سياق الموقف في المدرسة السياقية الحداثية، أو المدرسة التداولية؛ لأن سياق الموقف عندهم دوره دور إنتاج، وإن قلنا بسياق الموقف فحينئذ ينقلب الحال من كون النص القرآني نصاً منتجاً للمعاني، إلى كونه نصاً منتَجاً، وهذا هو الفيصل الفارق بين سياق الموقف وأسباب النزول.

المطلب الثاني: الفرق بين سياق الموقف ومقتضى الحال:

لبيان الفرق بين سياق الموقف ومقتضى الحال، علينا أن نستوضح ماهية المصطلحين، أما سياق الموقف فقد مرَّ آنفاً، وأما مقتضى الحال، فهو قيد في تعريف علم المعاني في البلاغة العربية، الذي هو "علم

(٥٤) اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص٣٥١.

يعرف به أحوال اللفظ العربي الذي يطابق مقتضى الحال"[٥٥]، فهو ما يحتاج إلى شيء من البيان، وقد ورد تفصيلٌ لمعناه عند التهانوي، فقال:

"الحال في اصطلاح أهل المعاني هي الأمر الداعي إلى التكلّم على وجه مخصوص، أي: الداعي إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يُؤدَّى به أصلُ المعنى خصوصية ما، هي المسمّاة بمقتضى الحال، مثلاً كون المخاطَب منكراً للحكم، حال يقتضي تأكيدَ الحكم، والتأكيد مقتضاها .. وفي تقييد الكلام بكونه مؤدّياً لأصل المعنى تنبيهٌ على أنَّ مقتضيات الأحوال يجب أن تكون زائدة على أصل المعنى، ولا يرد اقتضاء المقام التجرّد عن الخصوصيات؛ لأنَّ هذا التجرّد زائد على أصل المعنى. وهذا هو مختار الجمهور، وإليه ذهب صاحب الأطول، فقال: مقتضى الحال هو الخصوصيات والصفات القائمة بالكلام، فالخصوصية من حيث إنها حال الكلام ومرتبط به مطابق لها من حيث إنها مقتضى الحال، والمطابِق والمطابَق متغايران اعتباراً، على نحو مطابقة نسبة الكلام للواقع. وعلى هذا النحو قولهم: علم المعاني علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال، أي: يطابق صفةُ اللفظ مقتضى الحال، وهذا هو المطابِق بعبارات القوم، حيث يجعلون الحذف والذكر إلى غير ذلك معلّلة بالأحوال"[٥٦].

فمقتضى الحال هي الأمر المخصوص الداعي لتركيبٍ ما يناسب حالاً بعينها ضمن سياق معيَّن، فكل حال من الأحوال تقتضي نوعاً من التركيب، وكلما اقترب التركيب من مِحَزِّ الحقيقة المطابقة للحال؛ كان التركيب بليغاً، وبقوة المطابقة تقوى البلاغة.

فالجملة التأكيدية هي تركيب يناسب حالاً يكون فيها المخاطَب منكراً لأمر واقع مثلاً، فإذا أُكِّد التركيب حالَ الإنكار كان هو المطابق لمقتضى الحال، أما إذا لم يُؤَكَّد؛ فلنكتةٍ تقتضيها الحال، وعليه فإنَّ سياق الموقف هو الذي تتجلى فيه الحال، وهو الذي يحدد مطلوب التراكيب.

فسياق الموقف في المفهوم الحداثي يلتقي بالحال في كون الحال جزءاً منه، فقد تتعدد الأحوال ضمن سياق واحد، فيقتضي ذلك عدة تراكيب يناسب كلٌّ منها حالاً معيَّنة ضمن سياق الموقف الكلي، فالحال هي حدث مخصوص يستدعي تركيباً مخصوصاً ليطابق اللفظُ الواقع، وأما سياق الموقف فمفهومه أوسع من مفهوم الحال، حيث إن سياق الموقف يمثل المحيط الخارجي بجميع تفاعلاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والبيئية، فالعلاقة بينهما علاقة الجزء بالكل.

فالمقتضى هو المستدعي للألفاظ التي تطابق الحال، وهذا يقودنا بدوره إلى النص القرآني، فهل النص القرآني الذي نزل حديثاً عن الأمم الغابرة، والمستقبل الغيبي، والأحكام التشريعية، والوعد والوعيد،

---

(٥٥) التعريفات، الجرجاني، ص١٥٦.

(٥٦) كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، ج١ص٦١٦، ويُنظر: المطول، التفتازاني، ص١٣٧.

ومسائل الإيمان والتوحيد، ومخاطبات الناس زمن نزول الرسالة، أقول: هل النص القرآني هذا بعموم موضوعاته ومتعلقاتها الزمانية لا يكون مطابقاً لمقتضى الحال إلا إذا كان هناك سياق خارجي؟!

هنا يتجلى لنا القرآن بأبهى صورة من صور إعجازه، وهي استغناؤه عن سياق الموقف في بيان المقصود، إذ إن القرآن الكريم هو من يضيء الموقف الذي نزل فيه القرآن، سواء أكان الموقف وقت نزول القرآن، أم كان حديثاً عن الماضي والمستقبل، فإن النص القرآني كفيل بأن يستغني به القارئ عن توضيح ملابسات الزمان والمكان من سياق خارجي، حيث إن القارئ للقرآن يجده مجيباً عن كثير من الأسئلة التي تجول في الذهن، بل إنه ينقل لنا صورة الأحداث بشكلها الدقيق، ولذلك فالقرآن يصور المشاهد التاريخية، والمستقبلية، والغيبية بما يحرك به الألباب، وتُفتَتح به مغلق الأبواب.

فما تقتضيه الحال في النص القرآني هو طبيعة السياق القرآني اللفظي، الذي اشتمل المعنى وتصوير السياق الخارجي، وهذا لا يمنع بطبيعة الحال أن تكون أسباب النزول معينةً على فهم ما تقتضيه الحال، ولكنَّ هذا لا يكون إلا في بعض النصوص القليلة التي نزلت لأسباب وحوادث خاصة، وقد ربط ابن عاشور بين سبب النزول ومقتضى الحال ربطاً غير شرطي، فجعل أسباب النزول مدخلاً لمعرفة مقتضى الحال، فقال: "ولمعرفة أسباب النزول مدخل في ظهور مقتضى الحال ووضوحه"(٥٧)، فأسباب النزول تُعين على ظهور مقتضى للحال التي استدعت تركيباً دون آخر، هذا عن الآيات التي لها سبب نزول، فما حال الآيات التي لا أسباب لها روايةً؟

وهذا يدل على أنَّ مفهوم مقتضى الحال فيه غموض لدى بعض من يتداوله في الوسط الحداثي، فيظنون أن مقتضى الحال يتوجب وجود سياق موقف، وهذا الكلام غير صحيح، وهو يدل على عدم تحرير مصطلح مقتضى الحال لدى علماء البلاغة، لاسيما المتعلق بالنص القرآني.

فمقتضى الحال هو ما يستدعيه المعنى، أو تستدعيه الحقائق التي نزل في شأنها قرآن، وهذه الحقائق هي حقائق صدق وحق، ويقودنا هذا الكلام إلى بيان ثنائية مقتضى الظاهر ومقتضى الحال، فمقتضى الظاهر هو ما يقتضيه الظاهر العقلي، أو الظاهر الدلالي، أو الظاهر الصناعي، أو الظاهر اللفظي، أو الظاهر التقابلي، أو الظاهر الصرفي، فإذا أتى القرآن على خلاف هذا الظاهر، قيل حينئذ: إنَّ القرآن نزل بحسب مقتضى الحال لا بحسب مقتضى الظاهر، تحقيقاً لرتبة البلاغة العليَّة.

والصحيح أنَّ بينهما عموماً وخصوصاً، فكلُّ مقتضى ظاهر هو مقتضى حال، وليس كل مقتضى حال هو مقتضى ظاهر، وبلاغة القرآن كلها وفق مقتضى الحال، وكونها جاءت موافقةً لمقتضى الظاهر

(٥٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج١ص٤١.

فإنَّ هذا لا يعني بتاتاً أنَّ القرآن أراد التزام الظاهر كما يظنُّ كثيرٌ ممن التزم الصنعة البلاغية، بل كلُّ ما في الأمر أنَّ الظاهر وافق الحال.

فمطابقة الكلام لمقتضى الحال لا يعني الحال التي هي جزء من سياق الموقف الفعلي حين الخطاب، فهذا غير متصوَّرٌ في معظم الآيات القرآنية، أما الحال المرادة التي يُطلقها المفسرون في بيان الجانب للبلاغة القرآنية، فهي الحال المقالية، أي التي تُفهم على ضوء السياق المقالي؛ لأن سياق الكلام هو الكفيل بإيضاح الحال التي يتكلم عنها القرآن، فالسياق القرآني، يصور الحال الخارجية، ويأتي بالكلام الأبلغ الذي تقتضيه تلك الحال، ويكون لأسباب النزول أثرٌ في بيان مقتضاه كذلك، بناءً على الوظيفة التي أقرَّها علماء علوم القرآن لأسباب النزول، بخلاف المدارس السياقية الحداثية؛ لأنَّهم ينظرون للحال على أنها ظرف خاص، وهو مكوِّن من مكوِّنات الكلام، فالحال عندهم هي البيئة الخارجية التي قيل فيها الكلام.

فعلى سبيل المثال في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} [سبأ:٢١]، جاء اختلافٌ بين الصلتين، فالأولى جاءت فعلية، والثانية اسمية، فهذا السياق جاء حديثاً عن قصةٍ سابقةِ الوقوع، فلا يوجد لها سبب نزول؛ ليتضح مفهوم مقتضى الحال بناءً عليه، فكان السياق هو خير معين على بيان مقتضى الحال، ولذلك إذا تدبرنا السباق من قوله تعالى: {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سبأ:١٩-٢٠]، علمنا الحال التي اقتضت مجيء الأولى فعلية والثانية اسمية، يقول ابن عاشور: "وخولف في النظم بين الصلتين فجاءت جملة {مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ} فعلية، وجاءت جملة {هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ} اسمية؛ لأنَّ الإيمان بالآخرة طارئ على كفرهم السابق، ومتجدد ومتزايد آناً فآناً، فكان مقتضى الحال إيراد الفعل في صلة أصحابه. وأما شكهم في الآخرة فبخلاف ذلك هو أمر متأصل فيهم فاجتلبت لأصحابه الجملة الاسمية"(٥٨).

فبيان اقتضاء الحال لهذا التركيب وذاك لم يتوقف على السياق الخارجي الذي قيل فيه الكلام، بل فُهم من السياق الداخلي الذي صوَّر حال القوم، وأتى بما تقتضيه تلك الحال التي بيَّنها القرآن، ومعظم توجيهات مقتضى الحال في التراكيب القرآنية على هذا المنوال، وما يُذكر في كتب البلاغة من أن الحال حدث مخصوص فهذا صحيح، وقد يكون الحدث المخصوص في سياق خارجي كما هو الغالب في النصوص الأدبية، وقد يكون في سياق خارجي ورد في سياق لفظي كما هو في النص القرآني، والغالب على بيان مقتضى الحال في النص القرآني متوقف على تدبر السياق اللفظي.

---

(٥٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج٢٢ص١٨٢.

فالفرق بين سياق الموقف ومقتضى الحال في توجيه بلاغة القرآن، أن الحال هي ما يوردها النص القرآني حكاية عن حدث سابق أو لاحق، في عالم الغيب أو الشهادة، فالحال هي من مضامين السياق اللفظي، وأما سياق الموقف فهو وجود حدث خارجي قبل أو أثناء أو بعد الكلام، فالكلام مظروف في الحدث الذي قيل فيه، وعليه فسياق الموقف هو أحد مكوِّنات الكلام، بخلاف الحال في القرآن فهي جزء من الكلام، وهذا من أبرز أوجه الفرق بين النص الإلهي المعجز، والنص البشري العاجز، وبه يتضح دقة القرآن وصدقه في إبراز الأحداث بأحوالها ومقتضياتها، وعلو بلاغته في المطابقة لما تقتضيه الأحوال من تراكيب، وانتقاء ألفاظ، وترتيب جمل، وتناسب مقاطع وآيات.

فمثلاً قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} [البقرة:٢٦]، اختلف التقابل بين صنيع المؤمنين المُعبَّر عنه بالعلم، وصنيع الكافرين المُعبَّر عنه بالقول، فلم يقل عن الكافرين: (فلا يعلمون)؛ لاختلاف حالي الفريقين في مدح علم المؤمنين، وذم قول الجهالة للكافرين(٥٩)، فلا يوجد سياق خارجي محدَّد ارتبط به النص كي نفهم النص على ضوئه، فحديث القرآن عن حال المؤمنين وحال الكافرين مطلقاً، وهذا ما يجعل **دلالة مفهوم الحال في توجيه خصوص النص القرآني، تختلف عن دلالتها في عموم البلاغة العربية**.

وبه يتبين أنَّ سياق الموقف مختلف تماماً عن مقتضى الحال، وإن كان هناك من جعل مقتضى الحال أصلاً لفكرة سياق الموقف، والصحيح أنَّ هذا الجعل غير دقيق، وهو يعكس الرغبة الجامحة لدى بعض الكتاب في نسبة ما أتى به الغربيون إلى التراث العربي(٦٠)، فعمَّموا فكرة الحال في المفهوم التراثي البلاغي، فجعلوها أصلاً من أصول فهم بلاغة القرآن.

وقد أُسيء فهم كثير من عبارات الأئمة، واستُدِلَّ بها على غير مرادها، كمن استدل بعبارة الجرجاني الآتية على السياق الاجتماعي، وجعل الصور البيانية عادات استعمالية، ولا يمكن فهم مغزاها خارج إطارها الذي تستعمل فيه(٦١)، يقول الجرجاني: "ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم، أن يتوهموا أبداً في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل، أنها على ظواهرها، فيفسدوا المعنى بذلك، ويبطلوا الغرض، ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة، ومكان الشرف"(٦٢).

---

(٥٩) يُنظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ج١ص٧٤.

(٦٠) يُنظر: سياق المقام في القرآن الكريم قصة ملكة سبأ أنموذجاً، رفاه عبد الحسين الفتلاوي، ص٦٠.

(٦١) يُنظر: النظرية السياقية في الدرس اللساني قديماً وحديثاً، ناريمان براح، رسالة ماجستير، ص٢٧.

(٦٢) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص٣٠٥.

والجرجاني هنا لم يأتِ أبداً على سياق الحال فضلاً عن السياق الاجتماعي، وغاية ما عناه أن الألفاظ لا تُفهم على ظاهرها المعجمي، كمن فسَّر القلب بالعقل في قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ} [ق:٢٧]، يقول الجرجاني: "فأمَّا أن يؤخذَ به على هذا الظاهر حتى كأنَّ القلبَ اسمٌ للعقل، كما يتوهمه الحشو ومن لا يعرفُ مخارج الكلامِ، فمحالٌ باطلٌ؛ لأنه يؤدي إلى إبطال الغرض من الآية، وإلى تحريف الكلام عن صورتِه، وإزالة المعنى عن جهته"(٦٣)، فهذا مراد الجرجاني، ولو تأمَّل من نقل عبارته ضمن سياقها المقالي لفهم مراده دون لبس.

ونجد كذلك أنَّ خلطاً قد وقع عند طائفة من الكُتَّاب حين فسَّروا كلام الجرجاني تفسيراً بعيداً عن مراده، وذلك بتفسيرهم النظم في كلامه بأنه السياق(٦٤)، من مثل قول الجرجاني: "واعلمْ أَنك إِذا رجعتَ إِلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشكُّ، أنْ لا نظمَ في الكَلِم ولا ترتيبَ، حتى يُعلَّقَ بعضُها ببعضٍ، وَيْبني بعضُها على بَعض، وتُجعلَ هذه بسبب من تلك"(٦٥)، فمقصود الجرجاني هنا النظم لا السياق؛ لأن الجرجاني يتكلم عن العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعاني، لا العلاقة القائمة بين المعاني فيما بينها، ولذلك وجدناه ترجم لهذه العبارة بقوله: "النظم هو توخي معاني الإعراب"(٦٦).

المبحث الثالث: أسباب رفض استعمال مصطلح سياق الموقف في الدراسات القرآنية:

سبق التفريق بين سياق الموقف وأسباب النزول، ومقتضى الظاهر، وهذا التفريق من شأنه أن يكشف اللثام عن الحدود العلمية بين هذه المصطلحات، ويجلي للناظر طبيعة كل مصطلح، مع إدراك أبعاده الوظيفية، فبالإضافة إلى ذلك التفريق سأذكر مجموعة من الأسباب المانعة من استعمال سياق الموقف في الدراسات القرآنية، التي يتبين من خلالها خطورة استعمال هذا المصطلح الحداثي في قابل الأيام، وما الذي قد يجره من إشكاليات إن لم يقع الانتباه والتنبُّه والتنبيه على خطورته.

السبب الأول: خطورة اشتراط الحداثيين سياق الموقف في تحليل الخطاب:

سبقت الإشارة إلى أن فيرث لا يرى قيمةً للكلمة ضمن دلالتها المعجمية، وأن قيمتها الدلالية ومعناها لا يتضح إلا ضمن سياق الموقف، ومثله المدرسة التداولية التي رفعت شعار اللغة هي الاستعمال، وأصل

---

(٦٣) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص٣٠٥.

(٦٤) جدلية السياق والدلالة في اللغة العربية، سيروان الجنابي، ص٣٦.

(٦٥) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص٣٠٥.

(٦٦) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص٣٠٥.

هذه الفكرة لمالينوفسكي، عندما عدَّ اللغة استعمالاً لا تدوين فكر[٦٧]، فمالينوفسكي يعدُّ الفكر غير مرتبط باللغة؛ لأنه نتاج العقل، واللغة نتاج الاستعمال، فباتت اللغة وسيلة تواصل، فالقارئ لا يصل إلى مقصود المتكلم إلا بالوقوف على سياق الموقف، ونحن هنا أمام منهج حداثي بامتياز، يجعل السياق الخارجي أصلاً في معرفة دلالة الكلام، بل يُشكك في الفهم والتحليل لأي خطاب يخلو من سياق الموقف!

وبناءً على ذلك فإنَّ النص القرآني الذي يخلو من سياق الموقف هو نص مبتور الدلالة، مقطوع المعنى، غامض المفهوم؛ لأنه لم يستند إلى أحد أهم أدوات تحليل النص اللغوي وهو السياق الخارجي، ونحن نعلم أنَّ الآيات التي نزلت في أحداث مخصوصة قليلة، وما صحَّ منها قليلٌ من قليل، فعلى ضوء منهج المدرسة السياقية والمدرسة التداولية؛ فإنَّ النصوص القرآنية التي لم ترتبط بالسياق الخارجي، تكون أقلَّ جودة في تكاملها المعرفي وبالتالي الدلالي، وهذا يقودنا إلى مزلقة عظيمة من مزالق الخطر الحداثي على النص القرآني، ولا أدري ما جواب أولئك الذين تعجلوا التطبيق لبعض مفاهيم الحداثة على القرآن! هل سيكون لهم جواب واضح حول هذه الإشكالية، أو أنهم سيعمدون إلى الضبط والاختزال والتعديل على الطرح الحداثي؟ أو أنهم سيضطرون إلى الرفض التام؟ أو القبول التام؟

في ظني أننا بحاجة إلى استحضار أن الطرح الحداثي لا يتناسب مع تحليل النص القرآني، وذلك لأسباب كثيرة، على رأسها أن ما طرحته الحداثة صالح لتحليل النص البشري دون النص القرآني، ثم الحداثة بجميع مدارسها واتجاهاتها لم تنضج بعد، ولم تصل إلى رؤية واضحة حول آليات قراءة النص الأدبي، فكيف سيكون لها رؤية حول النص القرآني؟! هذا غير ممكن، بل غير متصوَّر.

ومما يعكر على المدارس الحداثية صفو تقدمها في سبيل بلوغ المرتبة العلية لدى الأمة المحمدية، هو أنَّ هذه الأمة تمتلك أدواتٍ متقدمةً في تحليل النص القرآني، وهي أدوات راسخة وثابتة، لم تصل بابَها المدارسُ الحداثية على تنوع اتجاهاتها، وتكاثر نُظَّارها، وتعدد انشطاراتها، وما زال الحداثيون في طور الابتداء – إن ابتدأوا –، وابتداؤهم ما زال بلا خبر، نعم الطرح الحداثي يمتلك أدواتٍ كثيرةً جداً، ومهارات رياضية، وأساليب علمية، ومحاولات عديدة، وأنشطة وتجارب كثيرة، وهذا قد يُغري اتجاهاً ما عند الباحثين؛ لكنَّ أهل العلم الراسخين يُدركون أن هذه الكثرة الكاثرة من المحاولات التي تُغري عيون بسطاء الباحثين، تدل على العشى والعمى عند القوم، فهم لم يهتدوا بعد إلى مطلوبهم ومقصودهم؛ لذلك ما زالوا يبحثون، ولا أستبعد أن الطرح الحداثي سيدخل – إن لم يكن قد دخل بالفعل – إلى دائرة الذكاء الاصطناعي، في إحدى محاولات ابتكار المعدوم، واختراع المفاجأة الكبرى، في سبيل الكشف عن منهج جديد في سبيل قراءة النص، الذي هو نتاج الذكاء الذهني، الذي لا يخضع لأدوات رياضية، فضلاً عن الذكاء الاصطناعي.

---

(٦٧) يُنظر: علم الدلالة إطار جديد، بالمر، ص٧٥.

وفي هذا السياق أُشير إلى أنه كان لبلومفيلد إيمان غريب بالعلم والوصف العلمي، فقد كان يعتقد أن مشكلات علم وظائف الأصوات كلها سوف تُحل خلال عقود قليلة من السنوات داخل معمل الأصوات، بل زعم أنَّ الصيغة الكلامية سيتضح معناها على نحو أكثر دقة عندما يرتبط المعنى بالمعرفة العلمية(٦٨)، وهذا منه في ظني نابع من الإغراق في الإعجاب بالتقدم العلمي من جهة، وفي محاولة تقليدية يائسة من اكتشاف الجديد المبهر، وبعبارة أخرى **القوم كانوا يبحثون عن مكتشفات علمية في الحقول اللغوية**، وهذا من أعجب ما يُمكن تصوره!

فاشتراط سياق الموقف لقراءة النص قد يكون مقبولاً في بعض النصوص الأدبية، أما فيما يخص النصَّ القرآني فهو اشتراط باطل، حيث إن النص القرآني نزل يخاطب الإنسان باعتباره عقلاً وقلباً وروحاً وعبداً مفطوراً على التوجه إلى المعبود الحق، فهذا المخاطَب ليس بحاجة لفهم القرآن سياق موقف؛ لأنَّ النصَّ القرآني هو كلام الله لكل إنسان، فخطاب القرآن للإنسان هو خطاب مستمر ودائم لا يتوقف على سياق دون آخر، فقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الانفطار:٦-٨]، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} [الانشقاق:٦]، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر:١٥-١٧].

وإخبار القرآن عن واقع الإنسان هو إخبار عن أمر مستمر إلى قيام الساعة، فلا يصح أن يستقر في ذهن أحد أنَّ الإنسان سيطرأ عليه التبديل والتطور، وبالتالي فالخطاب القرآني هو خطاب مؤقت، بهذه الحيثية الخطيرة، التي عَمِل عليها علماء الانثروبولوجيا(٦٩)، حيث بثُّوا سمومهم الناقعة في شتى الميادين بأن الإنسان كائن متطور، ثم ربطوا ذلك بعلم اللغة، وهم لم يقصدوا أن دلالة لفظ "كتاب" على المعهود هو الذي سيتغير، بل قصدوا أن الكلام ومضمون الكلام ومعاني الكلام هو الذي سيتغير، فما فُهِمَ الآن ليس

---

(٦٨) يُنظر: علم الدلالة إطار جديد، بالمر، ص٨٣.

(٦٩) لفظة أنثروبولوجيا Anthropology، هي كلمة إنكليزية مشتقّة من الأصل اليوناني المكون من مقطعين: أنثروبوس Anthropos، ومعناه "الإنسان"، ولوجوس Locos، ومعناه "علم". وبذلك يصبح معنى الأنثروبولوجيا من حيث اللفظ "علم الإنسان" أي: العلم الذي يدرس الإنسان. ولذلك، تعرَّف الأنثروبولوجيا، بأنّها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظلّ ثقافة معينة، ويقوم بأعمال متعددة، ويسلك سلوكاً محدداً؛ وهو أيضاً العلم الذي يدرس الحياة البدائية، والحياة الحديثة المعاصرة، ويحاول التنبؤ بمستقبل الإنسان معتمداً على تطوره عبر التاريخ الإنساني الطويل، ولذا يعتبر علم دراسة الإنسان (الأنثروبولوجيا) علماً متطوراً، يدرس الإنسان وسلوكه وأعماله. يُنظر: مدخل إلى علم الإنسان الأنثروبولوجيا، د. عيسى الشماس، اتحاد كتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤م، ص١٣.

بالضرورة أن يُفهم بعد ألف سنة أو ألفي سنة، أو عشرة آلاف سنة، إذا تجرَّد من سياقه الذي قيل فيه، وبالتالي ارتباط سياق الموقف بالكلام هذا الارتباط الوثيق الذي بدأه عالم الانثروبولوجيا الشهير مينالوفسكي بين اللغة وعلم تطور الإنسان، فجعل اللغة بدائية باستعمالاتها ومفاهيمها كما الإنسان(٧٠)، ثم تطورت في أسلوب الاستعمال مع تطور الإنسان(٧١)، هو ارتباط مرفوض بهذه الحيثية وهذا المنطلق؛ لأنه يرفع في المآل لواء الطعن في الخطاب القرآني، وقدرته على الاستمرارية على مدى الزمان.

فمثلاً قوله سبحانه وتعالى في الإخبار عن الإنسان: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [يونس:١٢]، وقوله تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} [إبراهيم:٩-١٠]، وقوله تعالى: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم:٣٤]، وقوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} [النحل:٤]، وقوله تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا} [الإسراء:٨٣]، وغيرها الكثير من الآيات التي تُخبر عن واقع الإنسان النفسي، والاجتماعي، والإيماني، والاقتصادي، وهذا الواقع لن يتغير، ومن يعتقد بأن صفات الإنسان التي أخبر القرآن عنها ستتغير مع تطاول السنين، فقد خرج من دين الله تعالى من حيث لم يشعر؛ لأنه يتهم القرآن بأنه غير صالح لكل زمان، فكأنه يقول: إن الإنسان الذي أخبر عنه القرآن عند نزوله، غير الإنسان بعد قرون من نزول القرآن، وعليه فخطاب القرآن غير صالح للإنسان المتطور، فإما أن يُترك الخطاب القرآني، أو أن تتغير معانيه على ضوء الإنسان الجديد.

هذا هو مآل القول بالتطور الإنساني، المرتبط بعلم اللغة، وهو يكشف لنا الاهتمام الكبير لدى علماء الانثروبولوجيا الذين جمعوا بين علوم اللغة والاجتماع والنفس، ثم طوروا عليها وأضافوا وعدَّلوا، ثم طوَّروا وغيَّروا، ليصلوا إلى خلطة من النظريات والاتجاهات المقبولة والمردودة، لكن علينا أن نعلم أن النظريات السياقية والتداولية هي أقرب النظريات التي تلامس الفكر العربي، وبالتالي فإنَّ الأخذ بها له الأولوية الكبرى؛ لما يُمليه من تقارب معرفي ومنهجي، وحس أدبي اجتماعي، وهو يعني ضمناً ضرورة الانتباه لخطورة المشهد.

ومن هنا فإنَّ خطورة القول بسياق الموقف بهذا الاشتراط الحتمي، والنظر إليه بعين، ثم النظر بالعين الأخرى إلى فكرة تطور الإنسان، ثم النظر بكلتا العينين إلى مفهوم الخطاب القرآني ومدى توفر أداة سياق

---

(٧٠) وهذا يعني ضمناً أن اللغة المتطورة مرتبطة بالإنسان المتطور، وأن تطور الاستعمال للغة يدل على التقدم والتطور وبلوغ مرحلة عالية من التحليل وإدراك المعاني، وهذا ما يجعل علم الدلالة في الغرب مرتبطاً بالحداثة بمفهومها المادي الفيزيائي الرياضي البحث، وهو ما يُنذر بخطورة الموقف على أصحاب العقول الضعيفة والقلوب الهشة.

(٧١) علم الدلالة إطار جديد، بالمر، ص٧٦.

الموقف لجميع آياته لاسيما المرتبطة بالإنسان، فإنَّ ذلك كله يقود إلى أحد أمرين؛ إما إلى إعادة النظر في القرآن وهو الانحراف عن مسلك الهدى، وإما الإقرار بسقوط القناع الكبير، وهو الاعتراف بالانخداع بما قاله الحداثيون ومدى صحة تطبيقه على القرآن الكريم.

السبب الثاني: القول بسياق الموقف يسلب من القرآن إعجازه:

الاعتماد على سياق الموقف في فهم النص القرآني يُضعِف قيمة البحث الدلالي فيه، ويجعله مفتقراً إلى قيود الزمان والمكان والأحداث، وهذا بطبيعة الحال غير مراد، بل مرفوض في أُسه وأساسه؛ لأنه إقفال للمعاني التي يريد القرآن إيصالها للمخاطبين، بحيث لا تُفهم إلا بربط سياق المقال بسياق الموقف.

والعربية لغة عبقرية وهي كفيلة بإيصال المعاني المرادة بأدق التعبيرات، وأنسب الألفاظ، وأليق التراكيب، وأقوى الروابط، واستبعاد كل ما من شأنه أن يحول دون المقصود، وهي لغة قامت على مخاطبة العقل، بألمعية وذكاء، وقد نزل القرآن بلسان هذه اللغة؛ ليتصف بأنه الكتاب المعجز، وإعجازه لم يكن في احتياجه لبيان معانيه ودلالاته إلى المواقف الخارجية كي يتبينَ المخاطَبُ المرادَ، بل القرآن هو من يُفهِم المخاطَب الموقف الذي نزل فيه القرآن، من خلال اللفظ، والصوت، والتركيب، والحرف، وعلم المعاني، والصور البيانية، فمثلاً صوت الإشمام في قوله تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ} [يوسف:١١]، يدل على الحالة النفسية – حزنهم على عدم ثقة أبيهم بهم – التي عاشها إخوة يوسف من تحرج أبيهم من أخذ أخيهم معهم، خوفاً من مكرهم، وحرصاً على محبوبه، فهذه الحالة رسمها صوت الإشمام في عقلية المتدبر.

وهذا الصوت يُصوِّر الموقف لا العكس، أي: أن القرآن هو الذي يجلي الموقف الأسري، والمشهد التاريخي، وكذلك صوت الباء والميم، في قوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ} [هود:٤٢]، فالصوت الصادر عن إدغام هذين الحرفين يصوِّر حالة الحزن العميق في نفس الوالد المتحسر على ولده، من خلال إدغام حرفين شفويين يُصوران حالة استعداد الفم للبكاء، فإذا كان الصوت القرآني كفيل بتوضيح الموقف، فكيف باللفظ، والتركيب، والحرف، واختيار الأبنية والصيغ، والتناسب، والتقديم والتأخير، والحذف والذكر، وما إلى ذلك من أدوات بلاغية ولغوية ونحوية وصوتية، التي من شأنها أن تُريك الغائب حاضراً، والمضمر مظهراً.

وفي المقابل نجد أنَّ اشتراط سياق الموقف في عملية تحليل النص هو عبارة عن وصف النص بأنَّه يفتقر لأحد أدوات فهمه وإيضاحه إن غاب عنه سياق الموقف، وعليه فالنص القرآني هو نصٌّ تضمن السياق الداخلي والخارجي معاً، أي أنَّ النص اللفظي استغنى عن استحضار سياق الموقف؛ وهذا يدل

على إعجازه وتمكنه الغيبي، وقوته الدلالية، وهو ما يجعله مختلفاً عن النص البشري، وعليه فالقول بسياق الموقف في تحليل النص القرآني، سبيله الرفض والمنع؛ لما يترتب عليه من محذورات.

السبب الثالث: القول بسياق الموقف يؤكد شبهات المستشرقين:

أثار المستشرقون قديماً شبهات حول القرآن في موضوع المكي والمدني، فقالوا: إنَّ القرآن الكريم هو نتاج ثقافة المكان الذي قيل فيه الكلام، وهذا يعني أن القرآن لمَّا كان ابن بيئته وكان له سياق خارجي أحدث ذلك أثراً في السياق الداخلي (اللفظي)، من حيث الموضوعات، والأسلوب، والألفاظ، ومنبع هذه الشبهة هو الاعتماد على سياق الموقف في إنتاج الخطاب، فالقول بسياق الموقف يعني ضمناً أن الخطاب القرآني صدر عن بيئة أنتجته، يقول الزرقاني في بيان هذه الشبهة على لسان المستشرقين:

"إن الباحث الناقد يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين لا تربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنَّ هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة، وتأثَّر ببيئات متباينة، فنرى أن القسم المكي منه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة، كما نشاهد القسم المدني منه تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة، فالقسم المكي يتفرد بالعنف والشدة، والقسوة والحدة، والغضب والسباب، والوعيد والتهديد، مثل سورة: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد:١]، وسورة {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر:١-٢]، وسورة {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر:١]، ومثل {فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر:١٣-١٤]"(٧٢).

ثم بيَّن الزرقاني غرض أولئك المستشرقين مما أثاروه فيقول: "وغرضهم من هذا معروف طبعاً، وهو أن القرآن ليس كلام الله، وليس معجزاً، إنما هو كلام محمد الذي تأثَّر أولاً بأهل مكة، فكان كلامه خشناً بعيداً عن المعارف العالية التي اكتسبها من أهل الكتاب في المدينة"(٧٣).

فالمستشرقون جعلوا سياق الموقف هو الصانع للخطاب، وبذلك نسبوا القرآن لمحمد – صلى الله عليه وسلم –، وأنه لو كان كلام الله تعالى لما كان هذا الاختلاف بين زماني النزول، فإثبات فكرة سياق الموقف، وجعلها أصلاً من أصول فهم الكلام، سيوقعنا إما في تناقض ممجوج، أو في حرج محجوج.

السبب الرابع: الابتداع الدلالي من خلال ابتداع فهم سياق الموقف:

وهذا سبب احترازي، فأخشى أن يقودنا مفهوم سياق الموقف إلى منحىً خطير في التعامل مع النص القرآني، وذلك بجعل البيئة العربية، أو الفهم التحليلي لواقع البيئة العربية عند نزول القرآن – وهذا

---

(٧٢) مناهل العرفان، الزرقاني، ج١ص٢٠٦.

(٧٣) مناهل العرفان، الزرقاني، ج١ص٢٠٦.

أخطر من السابق –، أحدَ أدوات فهم القرآن، بل قد يطغى هذا الاتجاه عند طائفة غالية في الانتصار لفكرة ما، على الدلالة المعجمية، أو النحوية، أو السياقية، أو الأثرية؛ ليكون سياق الموقف هو سيد الموقف، وهذا في ظني هو أحد المخاطر التي قد يجرها إلينا المنهج الحداثي في التعامل مع سياق الموقف، وأخشى أن يصبح منهجاً فكرياً مبتدعاً في محاولة يائسة وبائسة من محاولات تخليط التجديد في التفسير.

أي أن يصبح فهم المتأخرين لواقع البيئة العربية هو أحد أدوات فهم القرآن ومقاصده في معانيه ودلالاته، وهو يعني أن المتأخرين لهم الأحقية في ابتداع الجديد من المعاني، بابتداع فهم جديد للواقع الذي نزل فيه القرآن، الذي بدوره سيقود إلى فهم القرآن، ولذلك الأمر الذي يجب أن نتثبَّتَه هو أنَّ القرآن طريقٌ لفهم الواقع لا العكس، إلا إن ثبت الواقع بالرواية الصحيحة فهو طريق معين على الفهم، وبذلك نسلم من الابتداع الدلالي الذي هو أحد أدوات الحرب على القرآن في هذا العصر.

وعليه فالطريق الذي قد يوصل الحداثيين إلى التقول على كتاب الله تعالى، هو محاولة تقديم فهوم جديدة من خلال علم التاريخانية بقراءة الواقع العربي بجميع أبعاده العقدية، والاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، والبيئية، للخروج بنتائج من شأنها توجيه معاني القرآن، وذلك بإخراج الدلالة والمعنى الذي اتفق عليه المفسرون عبر تاريخهم العلمي الطويل، إلى معانٍ جديدة يكون الداعم لها سياق الموقف، باعتبارها شرطاً حتمياً في قراءة النص، ولعلَّ هذا من أشد أسباب منع تداول سياق الموقف في الدراسات القرآنية.

السبب الخامس: المعنى كامن في الألفاظ لا في البيئة الخارجية:

السياق هو عبارة عن المعنى الجزئي المتتابع الموصل إلى معنى كلي، ويُعبَّر عن السياق إما بالألفاظ فقط، وإما بالألفاظ والموقف معاً، وإما بالموقف فقط، فمثال الأول القرآن الكريم، ومثال الثاني معظم النصوص الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية التي تصدر ضمن سياقها الحالي، ومثال الثالث رؤية غريق في البحر فيأتي منقذ ليُنقذه، فرؤية الغريق هي معنىً ساقَ الرائي إلى الإنقاذ.

والسياق إن تمثَّل بالألفاظ، فالمعاني كامنةٌ حينئذ فيها، ولا يوجد في الموقف منها شيء، وعليه فالألفاظ هي الطريق الوحيد الموصل إلى المعنى والدلالة، وإن تمثَّل السياق بالألفاظ والموقف، فالمعاني كامنة فيهما، ولا نستطيع فهم المعنى إلا بالموقف واللفظ معاً؛ لأنهما أصل المعنى والدلالة، وإن تمثل بالموقف فحينئذ يستقل الموقف بالمعنى، ولا دور للفظ في ذلك.

وعليه فالمعنى في القرآن الكريم يُعرف بالألفاظ؛ وأما أسبابُ النزول ومقتضياتُ الأحوال لبعض الآيات، فهي ليست أدلة منصوبة على المعاني، بل هي مدخل معين على فهم المعاني، يقول شيخ الإسلام:

"ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإنَّ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"(٧٤)، مع استحضار الفرق بين سبب النزول وسياق الموقف، وبه يكون وصف القرآن بأنَّ له سياقين، سياق لفظي وسياق موقف، غير صحيح؛ لأنه نعت القرآن بغير نعته، فمعاني القرآن نزلت {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء:١٩٥]، واللسان هو الألفاظ التي دلَّت على المعاني، ولا يوجد شيء يحمل هذه المعاني إلا اللسان العربي، وأما السنة فهي بيان لهذه الألفاظ للوصول إلى معانيها، وتفسير السلف هو بيان للألفاظ للوصول إلى المعاني المحمولة باللفظ، وسياق الموقف لا يحمل أيَّ معنى ليكون له أثر في الفهم والبيان، ومن هنا نستطيع أن نقرر بأن سياق الموقف هو ابتداع دلالي حداثي، من شأنه أن يخترع معاني لا أصل لها في الكتاب والسنة، ولا في كلام أعلام الأمة.

فهذه خمسة أسباب في منع قبول سياق الموقف في الدراسات القرآنية، بالإضافة إلى أسباب أخرى متفرعة على المتقدم، أُشير إلى بعضها؛ فإنَّ كثيراً من الآيات بُنيت على التشابه، فإنَّ هذا سيزول لو كان هناك سياق موقف يحدد المعنى، وبالتالي ذهاب حكمة وجود المتشابه في القرآن الكريم، وكذلك مع وجود سياق الموقف للآيات القرآنية فإنه سيكثر القياس على المواقف التي نزلت فيها الآيات، وقد يقود إلى الاجتهاد بالرأي بصورة غير مقبولة مما يُترك معها الكثير من الأحكام الشرعية.

وكذلك سيتعذر بيان كثير من المعاني القرآنية بسبب تعذر وجود سياق للموقف من مثل المعاني الغيبية، وكذلك سيتوقف العقل الشمولي والتفكير المنطلق كما هو الحال مع آيات القرآن الكريم، إلى التقيد بأوضاع بيئية محددة، وهذا لا يعني أن بعض الآيات النازلة التي تحدثت عن مواقف بأعيانها، قد قصرت النظر، بل هي أسهمت في توسعة النظر؛ لأنها كانت كالأمثلة التطبيقية، لا سياقات مقيِّدة ومحدِّدة للأفهام، وما إلى ذلك الكثير من الأسباب التي لا تخفى على أهل الاختصاص.

الخاتمة

بعد هذا التطواف مع الفكر الحداثي في أحد منتجاته الاصطلاحية، وعلاقته بالأبعاد الاجتماعية والبيئية في قراءة النص اللغوي، وعلاقة ذلك بالقرآن الكريم، نخلص إلى النتائج الآتية:

أولاً: سياق الموقف هو عبارة عن أحد ركني السياق في الفكر الحداثي، وهو يمثل أداةً جديدة في قراءة النص اللفظي، وبه يتكامل المعنى وتقوى الدلالة.

ثانياً: أول من أبرز سياق الموقف هو عالم الانثروبولوجيا مينالوفسكي، ثم طوَّره فيرث في المدرسة السياقية، ثم اوستن في نظرية أفعال الكلام.

---

(٧٤) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج١٣ص٣٣٩.

ثالثاً: هناك فرق بين سياق الموقف وأسباب النزول، من حيث المفهوم والأثر، فأسباب النزول دورها في قراءة النص هو الإعانة على الفهم، أما سياق الموقف فهو صانع للنص ومؤثر فيه.

رابعاً: يختلف سياق الموقف عن مقتضى الحال، في كون مقتضى الحال قد يكون لفظياً وقد يكون خارجياً، وإن كان خارجياً فلا يؤثر على النص، بل النص هو الذي يكشف أحوال المخاطبين.

خامساً: السياق القرآني ينحصر في السياق الداخلي، ولا يتشكل من السياق الخارجي، وأسباب النزول ومقتضيات الأحوال لا تدخل في المفهوم الحداثي لسياق الموقف.

سادساً: القول بسياق الموقف مرفوض في الدراسات القرآنية لا باعتباره مصطلحاً حداثياً فحسب، وإنما لما يحمله من مفهوم باطل، لا تُقره الأصول الشرعية، ولا المفاهيم العلمية، وذلك للأسباب الآتية:

١- ينبني على اشتراط سياق الموقف أنَّ النص القرآني الذي يخلو من سياق الموقف هو نص مبتور الدلالة، مقطوع المعنى، غامض المفهوم؛ لأنه لم يستند إلى أحد أهم أدوات تحليل النص اللغوي وهو السياق الخارجي.

٢- القول بسياق الموقف يسلب من القرآن إعجازه؛ لأنه يجعل النص القرآني مفتقراً إلى الموقف، على أنَّ النص القرآني هو الذي يكشف عن ماهية الواقع المُتحدث عنه.

٣- تثبيت سياق الموقف يعني ضمناً الاعتراف بشبهات المستشرقين التي قالوها قديماً بأن القرآن ابن بيئته، وأنَّ ما فيه من ألفاظ وأساليب كانت متناسبة مع مكان النزول.

٤- الابتداع الدلالي على النص القرآني، حيث القول بسياق الموقف سيقود إلى ابتداع أفهام جديدة للبيئة العربية وقت نزول القرآن، وعليه فتفسير القرآن سيكون مبنياً على هذه الاجتهادات.

٥- الدلالة القرآنية هي دلالة في ألفاظ القرآن لا من خارج القرآن، وعليه فسياق الموقف هو مصطلح سيُضيف دلالة غير معهودة في لسان العرب، ولم تُنسج على منوال سابق، وبعبارة أخرى سيكون سياق الموقف ذا طابع إضافي في الدلالة الجديدة، أي الانحراف عن المعنى القرآني الثابت.

هذه أهم النتائج التي خلص لها الباحث من هذا البحث، وملخصها قائم على أنَّ الدعوة لإعمال سياق الموقف في الدراسات القرآنية دعوة لا تصح؛ لأنها لا تقوم على أركان ثابتة، بل ستكون مجلبة لإشكالات مستقبلية نحن في غنىً عنها، مما سيؤثر في الموقف العلمي للدارسين والمتابعين للقضايا القرآنية، وهو مجلبة للفوضى الفكرية، ومثير للشبهات اللامنهجية، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

المصادر والمراجع

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان،١٤١٥ هـ ١٩٩٥م.
- الأفعال التداولية في القرآن الكريم، سورة البقرة أنموذجاً، أطروحة دكتوراه، للطالب محمد مدور، جامعة الحاج لخضر، كلية الآداب واللغات، الجزائر، عام ٢٠١٣-٢٠١٤م.
- "أي دور للمقام في بناء الخطاب الديني وتوجيه مقاصد القول؟ عبد الرزاق الدغري، الندوة الدولية الرابعة: المقام في الخطاب، البحث الثالث عشر، جمعية الدراسات الأدبية والحضارية بمدنين، ٢٠١٩م.
- البرهان في تناسب سور القرآن، الغرناطي، تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.
- البرهان في أصول الفقه، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.
- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ١٣٩١هـ.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط(٧)، ١٤١٨هـ، ١٩٨٨م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ٢٠٠٠م.
- التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط (١)، ١٤٠٣هـ.
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط(١)، ٢٠٠١م.
- جدلية السياق والدلالة في اللغة العربية، سيروان الجنابي، مركز دراسات الكوفة، العدد التاسع، ٢٠٠٨م.
- جمهرة اللغة، محمد بن الحسن بن دريد، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- الجيم، أبو عمرو إسحاق بن مرّار الشيباني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأصفهاني، أحمد بن عبد الله، بيروت / لبنان، دار الكتب العلمية، (د.ط)، (د.ت).
- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.
- "دلالة السياق بين عبد القاهر الجرجاني وسابقيه"، أسامة عبد العزيز جاب الله، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ع (٨٩)، ٢٠١٦م.
- الدلالة اللغوية عند العرب، عبد الكريم مجاهد، دار الضياء، عمان – الأردن، د.ط، ١٩٨٥م.
- سياق المقام في القرآن الكريم قصة ملكة سبأ أنموذجاً، رفاه عبد الحسين الفتلاوي، حولية المنتدى، ع (٣٩)، ٢٠١٩م.
- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٩٨م.

– علم الدلالة إطار جديد، بالمر، ترجمة: صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥م.
– علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٧م.
– العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
– غريب الحديث، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى – مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ.
– قرينة السياق، تمام حسان، ص٣٧٥، بحث قُدِّم في الكتاب التذكاري للاحتفال بالعيد المئوي لكلية دار العلوم، مطبعة عبير للكتاب، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.
– كشاف اصطلاحات الفنون، محمد بن علي التهانوي، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت، ط(١)، ١٩٩٦م.
– اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.
– مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.
– محاسن التأويل، القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
– المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠م.
– مدخل إلى علم الإنسان الأنثروبولوجيا، د. عيسى الشماس، اتحاد كتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤م.
– المطول، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م.
– معجم علم اللغة النظري، محمد علي الخولي، مكتبة لبنان ناشرون، ط٢، ١٩٩١م.
– معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، محمد شكري عياد، (د.ط)، الرياض: دار المريخ للنشر، ١٩٨٤م.
– المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، محمد العبد، دار الفكر العربي، بيروت / لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.
– المفتاح في الصرف، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: د.علي توفيق الحَمَد، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
– مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
– مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م.
– مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة.
– منهج السياق في فهم النص، عبد الرحمن بودرع، مكتبة الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٨م.
– نظرية السياق عند فيرث، جبريل محمد عثمان، مجلة العلوم الشرعية، الجامعة الأسمرية، العدد (٢)، ٢٠١٦م.
– نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية، المثنى عبد الفتاح محمود، دار وائل للنشر، الأردن، ط(١)، ٢٠٠٨م.
– النظرية السياقية في الدرس اللساني قديماً وحديثاً، ناريمان براح، إشراف: بليردوح ثليثة، الجزائر، جامعة العربي بن مهيدي، كلية الآداب، رسالة ماجستير، ٢٠١٤-٢٠١٥م.
– النظم والسياق، المفهوم الانفصالي والعلاقة الاتصالية، المثنى عبد الفتاح، مجلة العلوم الشرعية، جامعة القصيم، مج (١١)، ع(١).